





مختارات ودراسات

الرئيسة العامة مكتبة الأسكندرية

٨٤٩٦٠٧١

١٤٠

١٩٨٤

العربي

والشعر

٦- شارع القصر الجديد - أمام مقر القومست - القاهرة
تليفون : ٢٧٥٦٦ - ٢٧٥٨٨

مدخل

ما هو الشعر ؟ سؤال من الأفضل ان يظل بلا اجابة حتى لانجازف باقتراح تعريف يحاول ان يقيس الافق وان يحلل زرقة البحر وان يصف صوت العصافير في الربيع وخفقات القلب في حضرة المحبوب وحرقة الاكباد عند فراق الاحباب . من الأفضل بدلا من تعريف السباحة ان نسبح معاني المياه الدافئة المعطرة التي تتدفق من سماء المتنبى وابى تمام وابى العلاء المعري وقيس بن الملوح وسواهم . ان هذه المختارات التي اقدمها للقارئ هي في المقام الأول نوع من التعاطف مع القارئ في الاقتراب من منابع تراثنا الشعري من خلال اعذب نماذج واصدقها في نفس الوقت — لقد خاض الدكتور طه حسين في كتابه حديث الاربعة جدلا مع رفيق متوهم حول جدوى الشعر القديم واظنه كان يتوجه بحديثه هذا الى عامة القراء الذين لا يسيفون لغة غير لغة عصرهم لسبب بسيط هو ان خاصة المثقفين والادباء يقرون بجمال هذا الشعر القديم من اعماق وجدانهم قال عميد الادب العربي :

— « انما امر الادب القديم عندي اشبه بحديقة طال عليها الزمن واهملت اهمالا متصلا ولم تنقطع عنها بعد ذلك مادة الحياة فبضت اشجارها وشجيراتها تنمو في غير نظام هذا النمو المهمل المضطرب حتى اختلط امرها اختلاطا شديدا وحتى اصبح من العسير عليك وعلى امثالك ان تجدوا فيه سبيلا الى ماتحبون من النزهة والراحة الى جمال الزهر والشجر فانتم قد الفتم الحقائق التي يتعهد بها البستاني اذا اصبح ويتعهد بها اذا امسى وينسقها لكم تنسيقا » .

وقد كان الدكتور طه حسين رائد الدعوة الى التريض بين حقائق الشعر القديم ونحن نتبعه في هذه الدعوة التي تقترب بنا من مصادر وجودنا الادبي ولكننا لا نذهب الى تراثنا لتريض فقط بل لنحصل على غذائنا الضروري للبقاء عربا في عالم اكتسح القوميات والاجناس وصبغ الادب في العالم كله بصبغة الحضارة الاوربية ان التوغل في الماضي والنظر بثبات الى الامام البعيد هو وسيلتنا لجعل ذاتيتنا فعالة وايجابية . وربما يبدو اختياري لهذه النصوص الرائعة غير منهجي من الناحية الادبية او من الناحية التاريخية ولكن ماجدوى المنهج ما دامت الحديقة كلها عامرة بالثمار الطيبة . ولقد وقفت امام آثارنا متعاطفا معجبا شديد التحيز لها دون ان افعل منظارا عصريا للنظر اليها . ولا شك ان هذه المختارات وسير شعرائها انما توجد في معظم كتب المختارات وربما قدمت من قبل الى القارئ بطريق او بأخرى ولكن قراءتي لهذه الآثار تأخذ مذاقها الخاص من تجربتي المتواضعة في الفهم والعرض والتحليل وهي تجربة

تنبع من الحب والقلب أكثر مما تنبع من الدراسة الأكاديمية العسيرة ولقد
أنعش روحى وإيقظ وجدانى هذا التجوال فى عصور هؤلاء الشعراء
ولا أعرف وقع هذه الرحلة إليها القارىء عليك قد تخرج من الهجير إلى
الصمت من جمال الربيع إلى ذبول الشتاء وقد تلفك انفاس العشاق
الذين اكتوت قلوبهم بالهجر والفراق وقد تجد ذلك مهتعا أو شاقا أو
عاديا ولكن هذا حصاد رحلتى وهو حصاد يقدم لآلىء نادرة من خلال
الربط بينها وبين أصحابها الذين كابدوا الحياة قبل أن يكابدوا الإبداع
ومنهم من كانت حياته ذاتها عملا مأساويا لا تستوعبه القصائد الصغيرة
المفردة وإنما قد تلمس حقيقته أعمال درامية كبرى مثل حياة الطغرائى
التي كانت نموذجا طاغيا لقسوة الطموح وبطشه طموح أفقد النفس مذاق
الحياة الإنسانية بطياتها المتاحة وأوقعه فى الخوف الدائم والحذر
الطائش والاصرار الجنونى على رغبة كان فيها هلاكه . حتى جسات
تصيدته لأمية العجم تحمل أقسى وصف للعصر الذى عاش فيه وتنطوى
على سوء الظن بالبشر أجمعين أصدقاء وأعداء الأقارب والأبعد على
السواء حتى ليقول :

أعدى عدوك من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحد من لا يعول فى الدنيا على رجل
ان هذه الرؤية الفكرية التى تنبع من معاناة الذات الأليمة من الآخرين
ولا تعترف بدورها هى فى خلق هذه المعاناة هى رؤية قريبة من رؤية أبى
الطيب المتنبى الذى كان طموحا إلى أقصى حدود الطموح ونال أقسى
مصير على طموحه هذا وموقفه المتشكك والمتعالى من المجتمع الذى عاش
فيه . وان كان المتنبى يفترق عن الطغرائى فى أنه كان صعبا ولم يصل
أبدا إلى هدفه بينما الطغرائى وصل إلى سدة الوزارة التى عاش حياته
كلها يحلم بها ، ان مأساوية حياة ونهاية هذين الشعارين تتجلى فى هذه
المختارات بصورة واضحة بين القصائد الأخرى التى تنطوى تحت دموع
الراء أو تأوهات العشاق . ولقد أتيت لى أيضا ان أجلو وجه هذه
القصيدة الجميلة لكعب بن سعد الغنوى . هذه القصيدة التى تسفر عن
صفات الفارس العربى النبيل فى سلوكه اليومى ومقصده من الحياة
وتجاوزه لتقامات المغنم الصغيرة وليس بغريب ان يكون الشعر بعد
ذلك ديوان العرب فهو ليس مفخرتهم اللسانية فحسب ولكنه بحر
الوجود العربى المتراعى الشواطىء . حيث نعتز فيه على مخاوف هذا
الوجود وتطلعاته ومغامراته وأشواقه ولأتهائته وانعتاقه وعبوديته أيضا
وإذا كان لى ان أقدم هذه القراءات الشعرية مشفوعة برؤية تحليلية
للعناصر الشعرية وللسيرة الذاتية لبعض الشعراء فان هدفى هو تأكيد
الدعوة التى دعا إليها عميد الأدب العربى من ناحية وتأكيد انتسابنا القوى
إلى تراثنا وأعجابنا به ومحاولة جعله يمارس وجوده حيا بين حياتنا
الراهنة دون ان يعنى هذا ان الحاضر يسلم الزمام للماضى ولا ان يشير إلى
الى ان الفردوس تابع فى العصور الأولى . وإذا أتيت لى ان أكسب تعاطف
القراء مع هذه المحاولة وأحملهم على الرحيل معى إلى عوالم هؤلاء الشعراء
فقد ظفرت بما يفوق البغية من وراء تقديم هذا الكتاب .

محمد إبراهيم أبو سنه

« وَاَحَر قَلْبِـبَاه »

لأبي الطيب المتنبي

ومن بجسمي وحالي عنده سقم
وتدعى حب سيف الدولة الأهم
فليت أنا بقدر الحب نقتسم
وقد نظرت اليه والسيوف دم
وكان احسن ما في الاحسن الثيم
في طيه أسف في طيه نعم
لك المهابة مالا تصنع البهم
ان لا يواريههم ارض ولا علم
تصرفت بسك في آثاره الهم
وما عليك بهم عار اذا انهزموا
تصافحت فيه بيض الهند والهم
فيك الخصام وانت الخصم والحكم
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
اذا استوت عنده الانوار والظلم
بأننى خير من تسعى به قدم
واسمعت كلماتي من به صوم
ويسهر الخلق جراها ويختصموا
حتى أتته يد فراسة وفم
فلا تظنن ان الليث يبتسم
أدركتها بجواد ظهره حرم
وفعله ما تريد الكف والقدم
حتى ضربت وموج البحر يلتطم
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
حتى تعجب منى القور والأكم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم
لو أن امركم من أمرنا أمم
فما لجرح اذا أرضاكم الم
ان المعارف في اهل النهى ذم
ويكره الله ما تاتون والكرم
انا الثريا وذان الشيب والهرم
يزيلن الى من عنده الديم
لا تستقل بها الوخادة الرسم
ليحدثن لمن ودعتهم ندم

واحر قلبباه ممن قلبه شـبـم
مالي اكتم حبا قد برى جسدى
ان كان يجمعنسا حب لغرته
قد زرتة وسيوف الهند مغدة
فكان احسن خلق كلهم
فوت العدو الذى ييمته ظفر
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت
الزمت نفسك شيئا ليس يلزمها
اكلما رمت جيشا فانثنى هربا
عليك هزمهم في كل معترك
اما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
يا أعدل الناس الا في معاملتى
أعيذها نظرات منك صادقة
وما انتفاع اخى الدنيا بناظره
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
انا الذى نظر الاعمى الى ادبى
انام ملء جفونى عن شواردها
وجاهل مده في جهله ضحكى
اذا رأيت نبوب الليث بارزة
ومهجة مهجتى من هم صاحبها
رجلاه في الركض رجل واليدان يد
ومرهف سرت بين الجفلين به
الخيـل والليل والبيداء تعرفنى
صحبـت في الفلوات الوحش منفردا
يا من يعز علينا ان نفارقهم
ما كان اخلقنا منكم بتكرمة
ان كان سرهم ما قال حاسدنا
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى
ليت الغمام الذى عندى صواعقه
ارى النوى يقتضينى كل مرحلة
لئن تركن ضميرا عن ميا مننسا

اذاترحلت عن قوم وقد قدروا
شر البلاد مكان لا صديق به
وشر ما قنصته راحتى قنص
بأى لفظ تقول الشعر زعنفه
هذا عتابك الا انه مقه
الا تفارقهم فالرحلون هم
وشر ما يكسب الانسان ما يصم
شهب البزاة سواء فيه والرخم
تجوز عندك لا عرب ولا عجم
قد ضمن الدر الا انه كلم

صاحب هذه القصيدة هو شاعر العرب الاكبر احمد بن الحسين
ابن عبد الصمد الجعفى المعروف بابى الطيب المتنبي ذاع اسمه في آفاق
عصره حتى كنت تلتقى بشعره في أية أرض عربية تقصدها كما كانت
شخصيته عوناً كبيراً لهذا الشعر على الذبوع لتمييز هذه الشخصية
بصفات نادرة في مقدمتها الكبرياء والطموح الغلاب وشهوة السلطان
والملك فقد كان المتنبي شاعراً يعتقد انه خلق ليكون ملكاً ويبدو ان هذا
الاعتقاد مصدره معرفته الواسعة بشئون عصره وثقته المطلقة في قدراته
هذه القدرات التي جعل لها الشعر العظيم الذي سحر به المتنبي عصره
قوة خاصة اقتحم بها الشاعر المدن والممالك والفلات ظامناً الى تحقيق
حلم يراه حقاً بينما لم يكن في الحقيقة اكثر من سراب. ولد المتنبي سنة
ثلاث وثلاثمائة في محلة يقال لها كنده بالكوفة وكانت الكوفة في ذلك
الوقت تعيش فترة قلقة بسبب ثورات القرامطة وتجع بالحركة الفكرية .
تلم في مدارس العلويين وأتقن اللغة العربية من خلال ادمانه
لحفظ الجيد من الشعر وقد اتصف منذ صغره بالذكاء
الشديد وقوة ذاكرته اتم تعليمه في بادية السماوة حيث تتلمذ
على لغة البادية الجزلة الفصيحة الصحيحة وما ان اكتملت له ادوات
الشاعر الذي وعى ثقافته عصره السياسية والفكرية حتى بدا في التجوال
تلهبه هذه النار التي تدفعه لطلب المجد فانجسه الى الشام وظل يمدح
بعض الاغنياء والامراء حتى كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فأهتدى
الى سيف الدولة . وكان هذا الامير يجسد آمال الشاعر اعظم تجسيداً فكان
شاباً شجاعاً مغواراً يعمل على تدعيم حدود دولته بالاغارة على البيزنطيين
ورد غاراتهم . وجمع سيف الدولة حوله صفوة علماء وادباء العصر
يستمتع اليهم باحساس عميق وكان على دراية باللغة شعرها ونثرها
يقدر الشعراء ويغريهم حتى جعل من دولته بلاطاً للادب والسياسة والفكر
ووجد المتنبي في هذا الامير نموذجاً لما ينشد لنفسه فلزمه تسع سنوات
قال فيها اعظم شعره في مديح هذا الامير سيف الدولة وهي القصائد
التي عرفت بالسيفيات ولكن مكانة المتنبي وشعره اغرت به الاعداء من
الشعراء الذين طغى عليهم مجد المتنبي فأحالهم الى مجرد اشباح لشعراء
لا يطمعون في اكثر من التواجد في بلاط الامير لا ينتظرون مجداً ولا مالا
فقد استولى المتنبي على كل ذلك فبدأوا في الكيد للشاعر العظيم حتى وجد
المتنبي نفسه هدفاً للنبال وتكاد هيئته تتعرض للمهانة بعد ان تهاون سيف
الدولة في دفع الاذى عنه وربما لأن سيف الدولة نفسه كان يضيق
بالغرور الشديد الذي كان المتنبي لا يحاول اخفاء مظاهره بحال من
الأحوال بل لقد كان كل من يرى المتنبي وهو ينشد سيف الدولة يرى فيه
كبرياء الامير نفسه ولا شك ان هذه المظاهر كانت ذرائع منطقية ومقنعة

لهؤلاء الذين اولعوا بالدس والكيد لشاعر تياه يضع نفسه فوق الجميع وانتهى الموقف بالمتنبى بعد ان تدهور وضعه الادبى والنفسى الى مفارقة من يود الإقامة عنده ولكن كبرياءه الجريئة كانت تهدد بالعزم على مواصلة الرحلة الى مصر حيث يلمع سراب الامل مرة اخرى فى صحراء حياته ولعله ان يجد عند كافور الاخشيدي ما لم يجده فى كنف سيف الدولة ولقد كان يعتمد بالطبع على الخلافات السياسية القائمة فى ذلك الوقت بين هؤلاء الملوك والامراء . كان المتنبى يتوق الى ولاية ينصب نفسه اميرا عليها وذهب الى مصر ومدح كافور الاخشيدي وبالغ فى مدحه ولكن كافور خيب رجاءه فرحل مرة اخرى الى الكوفة يجبر اذلال الفشل والمرارة ثم رحل بعد ذلك الى فارس حيث تلقى دعوة من ابن العميد فرحل الى هناك ولكن الإقامة لم تطب له ويبدو انه قد سئم وضع نفسه فى خدمة الملوك وان كان قد تلقى دعوة ايضا من عضد الدولة البويهى سلطان شيراز وكان شابا مثقفا جوادا ولكن المتنبى أثر الرحيل الى مسقط رأسه فى الكوفة . وعبر طريق العودة تربص اعداء المتنبى به ليقتلوه بجبل دير العاقول ويقال ان احد اصدقائه قد حذره من الكمين الذى وضع له ولكن المتنبى أبى ان يحتاط للامر ثقة فى نفسه وهكذا اوقع به اعداؤه وقتلوه لتصمت هذه القيثارة الرائعة التى عزفت للشعر العربى اعظم قصائده .

ولكن موت المتنبى بهذه الصورة المساوية والتى تضع نهاية درامية لحياة بالغة التوتر والقلق والجموح والكبرياء والمجد فتحت الباب امام حياة جديدة لشعره وربما كانت هذه الحياة الجديدة هى اخذ ما يطمح اليه شاعر فقد تنافست الاقلام فى تناول شعره وحياته وتحقق له حلم تقصر عنه احلام الولايات والامارات والسلطة الزائلة .

تأتى هذه القصيدة من شعر المتنبى فى مرحلة من اخطر مراحل حياته من الناحية التاريخية فهى اعلان تحرقه الزمرات وتطرزه الدموع عن فراق المتنبى لسيف الدولة بعد تسع سنوات من المجد والشعر والحلم . وهى مفتتح لعصر غامض مجهول سوف تغرب فى نهايته شمس حياة الشاعر ومن هنا فهذه القصيدة تمثيل لفن المتنبى فى قمة توهجه وابرار خصائصه لأنها تأتى فى مفترق طريق صعب كان على الشاعر ان يختار بين كبريائه وبين طمأنينة يتجرع خلالها الهوان وقد أثر الشاعر شأن الفرسان ان يغامر بالطمأنينة والراحة الذليلة لكى يضرب للحظ اشق الطرق . ولكن الشاعر وهو يأخذ قرارا خاصا بحياته يكشف لنا فى شعره الصراع الحقيقى وراء الظاهر الذى ترصده العيون الساذجة . لقد كان سيف الدولة يرى فى شعره المتنبى مرآة نقية لبطلته وفروسيته وتلقى مجده كلاهما كان يبقى على الآخر لأن كلا منهما يمتنع الآخر الرضى عن نفسه . ومن هنا رأينا قصيدة الفراق مشحونة بهذه اللوعة التى لا تكون الا بين المحبين حين يحكم عليهم سيف الفراق بالرحيل .

ان القصيدة تبدأ بهذه الزمرة المتصاعدة من الكلمات التي كان المتنبي يعرف دقائقها فهذه الواو المدودة في البداية تعطى ايحاء بالرغبة في اعلان الشكوى وعدم القدرة على احتمالها وكأنه يفتتح مرثية اليمة وكيف لا وهي نبوءة مبكرة بما سيلاقيه المتنبي من فشل وضياع بعد هذا الزمن المجيد الذي انقطع وتبدد . هو يشكو حرارة العاطفة والحب ازاء قلب بارد جسامد لا يكن حبا ولا شوقا . هي شكوى من السقم الذي ساقته الحب ومن الجفاء الذي يسكن القلوب القاسية ويبدو أن الايحاء كان غير شاف فآثر أن يصرح ويجهر بهذه المحبة القوية الكافية في نفس الشاعر لسيف الدولة . ان الشاعر يواجه الوثابة الذين يكيدون له عند الامير باعلان الحب كأساس للعدل في العلاقة وهو مدخل في غاية الذكاء والمهارة والقوة ولما كان اعلان الحب يستدعي على الفور صورة المحبوب فقد اورد الشاعر هذه الصورة . والمتنبي يتحدث عن حالين اسيف الدولة حالة السلم وحالة الحرب فكان في الحالين احسن خلق الله كلهم .

قد زرتة وسيف الهند مغبرة وقد نظرت اليه والسيوف دم

ان الشاعر هنا يقول لنا انه يحب لانه يعرف محبوبه جيدا يعرفه وقد رآه مسالما ورآه محاربا فهو حب الخبرة وهو حب مبصر رشيد ثم ساق مديحه في اطار البأس والقوة اللائقة بامير شجاع فارس يحمى ثغور الدولة العربية امام بيزانطة ولا شك أن المبالغة وهي عصب الشعر عند المتنبي كله قد اخذت بتلابيب هذه الابيات التي تبدأ بقوله .

فوت العدو الذي يجمته ظفر في طيه اسف في طيه نعم

الى ان يقول :

عليك هزمهم في كل معترك وما عليك بهم عار اذا انهزموا

الى هنا نكون قد وقفنا مع الشاعر في ثلاثة مواقف : الشكوى من ظلم المحبوب الذي لا يجازي على المحبة بمثلها ثم التصريح بهذا الحب المكنون الذي يتمنى الشاعر لو كان الحب اساس العدل وبقدر الحب يكون العطاء ثم هذا الوصف الخارجي المألوف في شعر المتنبي والذي يرتفع احيانا الى الذرا وقد تهبط به المبالغة احيانا الى حضيض الافتعال والتكلف تتصل القصيدة بعد ان انقطعت بالاجزاء الوصفية تتصل العاطفة الجياشة واللوعة والحزن حين تخرج من صليل السيوف ومعارك سيف الدولة لتدخل الى صميم معركة المتنبي مع نفسه في هذه القصيدة لقد باغ المتنبي ان بعض جلساء سيف الدولة يقولون عايه مكانت هذه القصيدة صرخة عتاب ونبوءة خصام وعزما اكيدا على الفراق ولكنه قبل ان يفارق لابد ان يحارب معركته مع اعدائه اولا ومع سيف الدولة ثانيا ومع نفسه ثالثا : يتلطف الشاعر في العتاب مقدما سيف كمهاد لدمواه ويلواه في نفس الوقت : باعدل الناس الا في معاملتي ، فيك الخصام

وأنت الخصم والحكم ثم يتطرق الى هؤلاء الذين يكبدون له ان المتنبي يعد في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين يخلبون الالباب في نفس الوقت الذي يسيطرون فيه على الاحساس بالوسائل الجمالية المتنوعة من خلال الالفاظ الجزلة النبيلة الملائمة والصورة الباهرة والموسيقى التي تزلزل الاذان بسحرها ولكن المتنبي الذي درس الفلسفة بملك شعره منطقاً بالغ القوة والحس مع صعوبة استخدام المنطق في الشعر وهذا هو سر تفوق المتنبي الحقيقي بين الشعراء فهو قد مزج الحس والعقل معا بهذه القوة الخفية التي يملكها شعره . ولا شك ان ثقافة المتنبي الواسعة هي التي صنعت له هذه القدرة الفائقة انه يضع المنطق الشعري في مقدمة حججه مع خصومه .

اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فبمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره اذا استوت عند الانوار والظلم

ثم يقول في موضع آخر

اذا رأيت ثيوب الليث بارزة فلا تظن ان الليث يبتسم

ان رسوخ ثقة المتنبي في نفسه يهتز قليلا حين يطالعنا بهذه الابيات المباشرة الذاتية التي تعلن بشكل لا مدارة فيه عن غرور واضح ومبالغة متهافئة :

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسمى به قدم
انا الذى نظر الاعمى الى ادبى واسمعت كلماتى من به صمم

ان هذه الثقة تهتز لأن المتنبي يشعر في اعماقه ان سيف الدولة قد بدأ يعطى اذنه للوشاة والحساد الذين كان الفيظ من المتنبي وغروره يكاد يفتك بهم ورغم هذه المبالغة التي لا تقنع احدا بصدقها الا ان قوة الشاعرية فيها تجعل المتنبي بعيدا عن السخرية منه يسبب هذه الابيات وليس ادل على ذلك من شيوع هذه الابيات واستخدامها وجزيانها مجرى الامثال والحكم في بعض الاحيان ومن الذي لا يصدق المتنبي حين يقول .

الخيال والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويقال ان هذا البيت كان سببا في قتله فقد حاول الهرب من مواجهة اعدائه عندما تربعوا له عند دير العاقول فقال له غلامه انقر وأنت القائل الخيل والليل الخ .

وتعود القصيدة بعد فاصل من الفخر الشديد والزهو الذي يدل على التعاسة الشديدة تعود القصيدة الى الصدق الفنى الى ذات الشاعر

المحاصرة بين الاعداء وهو يفكر جدبا في الرحيل عنهم وتتصل مرة اخرى العواطف والمشاعر الرقيقة الحزينة وتعود الابيات الى هدفها .

يا من يعز علينا ان نفارقتهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

اذن لقد كان المتنبي يضع صداقته بسيف الدولة فوق كل متاع محتمل من فراقه ويبدو ان فترة الاقامة الجيدة عند سيف الدولة قد ألهمته ولو بشكل مؤقت عن حلم حياته وهى الولاية والسلطان . انه يخاطبه بلغة خاشعة وصور تنهل من حب حقيقى وتجاوز عن كل شيء ما عدا هذه الصلة التى يراها المتنبي فى قوة وجوده ذاتها .

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكمو الم

ولكن الشاعر يلتفت فمى حساده وأعداءه عن يمين سيف الدولة ويساره ويأهم دائبين فى الانتقاص منه والبحث عن مثالبه ونشر عيوبه فمى اليهم بأحجاره . انهم فى شدة الغيظ من غروره وثقته بنفسه ولهذا فهو لا يجد ما يزيد من غيظهم ومن مضاعفة مرارتهم الا ان يبالغ فى هذا الغرور وتعظيم هذه الثقة بالنفس .

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم ما أبعد العيب والنقصان من شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهزم

والقصيدة تتابع صعودها وهبوطها . استقامتها وتلفتها الى الخلف واليهين واليسار ونقترب من نهايتها فيكشف المتنبي بعد ان صرح بالحب والكره والفخر والعتاب يكشف عن قراره التاريخى انه يضر الرحيل عن هؤلاء القوم الذين أصبح يفص بينهم بطعامه ويشرق بمائه وكأنه يهيم ناقتة للرحيل ويستعد لعبور الصحراء فى طريقه الى المجهول بعد ان تنفست احلامه فى صدره وتقدمت به السن فهو فى الثالثة والاربعين من عمره والامال بعيدة تطفح الابيات الاخيرة من القصيدة بالحسرة والندم والفخر والهزاء وكأنه فى الابيات السبعة الاخيرة يعيد ايجاز القصيدة كلها فهو بمثابة عرض مركز لعناصرها كلها انه يقول كلمته الاخيرة قبل ان يرحل .

ارى النوى يقتضىنى كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم

الى ان يقول :

هذا عتابك الا انه قصة قد ضمن الدر الا انه كلم

لقد كان المتنبي دائما حريصا على انصاف نفسه وهو يرى الآخرين سيسئون الى مكانته العالية فكان يجازف براحته من اجل انقاذ كبريائه

ولقد جاءت قصيدته وافر قلباه واحدة من اصدق قصائده لانها صرخة
 يائس حائر ضائع واذا كان شعره قد رفع اسمه عاليا فقد كانت النار
 التى تبدع هذا الشعر تدفع به الى المعاناة القاسية والى مجابهة الاهوال
 وسواء كان النقاد قد انصفوه أو ظلموه حين عابوا عليه هروله المستمرة
 وراء سراب الولايات وبريق السلطان المرواغ فان المتنبي كان صريع قدرة
 الذى الهب فى كيانه الجذوة المقدسة جذوة الشعر العظيم كما وضع فى
 هذه الكيان نفسه جذوة الطموح القاتل الذى ما كان بإمكان الشاعر ان
 يغالبه ولا ان يكفكف من جموحه ذهب الشاعر وبقى الشعر ومن يدري
 ان حياة مختلفة من حياته تلك كانت ستنجب لنا نفس هذا الشعر
 العظيم . رحم الله ابا الطيب المتنبي .

رثاء الجدة

لأبى الطيب المتنبي

القصيدة

ألا لا أرى الاحداث مدحا ولاذما
 الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى
 لك الله من منجوعة . . بحبيبهما
 احن الى الكأس التي شربت بهما
 بكيت عليها خيفة في حياتهما
 ولو قتل الهجر المحبين كلهم
 عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا
 منافعها ماضر في نفع غيرها
 اتاها كتابي بعد يأس وترحمة
 حرام على قلبي السرور فاننى
 تعجب من لفظي وخطي كأنهما
 وتلثمه حتى اثار مداده
 رقا دمعها الجارى وجفت جفونها
 ولم يسلمها الا المنايا وانما
 طلبت لها حظا ففاتت وفاتنى
 فاصبحت أستسقى الغمام لقبرها
 وكنت قبيل الموت استعظم النوى فقد
 هبى أخذت الثأر فيك من العدى
 وما انسدت الدنيا على لضيقها
 فسوا اسفا ألا اكب مقبلا
 والا الاقوى روحك الطيب الذى
 ولو لم تكونى بنت أكرم والد
 لئن لذ يوم الشامتين بيومها
 تغرب لامستعظما غير نفسه
 ولا سالكا الاقواد عجاوجة
 يقولون لى ما انت فى كل بلدة
 كان بنيتهم عالمون باننى
 وما الجمع بين الماء والنار فى يدى
 ولكننى مسستنصر بذبابه

فما بطشها جهلا ولاكنها حلما
 يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى
 قتيلة شوق غير ملحقها وصما
 وأهوى لثواها التراب وماضها
 وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
 مضى بلد باق أجدت له صرما
 فلما دهنتى لم تزدنى بها علما
 تغذى وتروى أن تجوع وان ظما
 فماتت سرورا بى نمت بها غما
 اعد الذى ماتت به بعدها سما
 ترى بحروف السطر أغربة عصما
 محاجر عينيهما وأنيابها سحما
 وفارق حبي قلبها بعد ما ادمى
 اشد من السقم الذى اذهب السقما
 وقد رضيت بى لورضيت بها قسما
 وقد كنت أستسقى الوغى والقنا الصما
 صارت الصغرى التى كانت الكبرى
 فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى
 ولكن طرفا لا أراك به اعمى
 لرأسك والصدر الذى ملئا حزما
 كان ذكى المسك كان له جسما
 لكان أبك الضخم كونك لى اما
 لقد ولدت منى لأنفهم رغما
 ولا قابلا الا لخالقه حكما
 ولا واجدا الا لمكرمة طعما
 وما تبتغى؟ ما ابتغى جل ان يسمى
 جلوب اليهم من معادنه اليتما
 بأصعب من أن اجمع الجد والفهما
 ومرتكب فى كل حال به الغشما

وجاعله يوم اللقواء تحيتى
اذا فل عزمى عن مدى خوف بعده
وانى لمن قوم كان نفوسهم
كذا انايادنيا اذا اشئت فاذهبى
فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى
والا فلسست السيد البطل القرم
فأبعد شىء ممكن لم يجد عزم
بها أنف أن تسكن اللخم والعظما
ويا نفس زيدى فى كرائها قدما
ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

شاعر هذه القصيدة هو ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى المعروف فى تاريخ الادب العربى بالمتنبى وما من شاعر فى العربية حظى بمكانته الادبية وعلو شأنه فهو اكثر الشعراء اثارة للاهتمام والجدل والاختلاف والاتفاق يحبه الذين يحبونه بافراط يدنو من العشق ، ولا يستطيع من ينفر من عجبه الزائد بنفسه الا الاحترام لفنه والتقدير لشعره وقد يضعه النقاد والباحثون فى مقدمة شعراء العربية على الاطلاق وتمد يقدم بعض الباحثين غيره عليه ولكن اجماع المتطرفين والمعتدلين منعقد حول وضعه فى الصدر الاول من قافلة الشعر العربى .

واذا كان شعر المتنبى بما يتميز به من فخامة وجلال وسطوة قد جعل منه محور الكثير من الدراسات العميقة المتقضية الا ان شخصيته الفريدة هى الاخرى كانت سببا قويا لدفع موجة الاهتمام به الى امد بعيدة حقا .

ولد المتنبى بالكوفة عام ٣٠٣ هـ . اى فى بداية العقد الرابع الهجرى وهو العقد الذى وصفه الباحثون وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين بالاضطراب السياسى والاجتماعى والازدهار الفكرى . ولد فى محله كنده ونسب اليها ولقب بكندى وما ان ترعرع وادرك بعض شئون الدنيا حتى اغرم بعلوم العربية غراما شديدا كان نبوءة بما يعتل فى ذاته من موهبة كبيرة تستعد للعباء الزاخر العظيم اختلفت الآراء حول نسبه وقد اغفل هو الحديث عن هذا النسب اغفالا يوحى بانه لم يكن يفخر به وقيل ان اباه كان سقاء . يقول الدكتور طه حسين كان للمتنبى أب وجد ولكن المؤرخين والنسابين لا يعرفون من أمر جده قليلا ولا كثيرا ويكادون يختلفون فى اسمه . اما ابوه فقد زعموا انهم كانوا يعرفون عنه شيئا يسيرا جدا : كانوا يزعمون ان ابا المتنبى كان سقاء فى الكوفة تحدث المؤرخون بذلك وهم بين متحدث به يريد ان يرفع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فهاى الدنيا وشغل الناس وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان ابوه يبيع الماء على الناس وكان هو يبيع ماء وجهه على المدوحين وما اظن ان الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا الى اثبات الحق من حيث هو حق وتسجيل التاريخ من حيث هو تاريخ وانما قصدوا الى ما ذكرت لك : الى الرفع من شأن المتنبى او الوضع من قدره فكانهم اذن لم يصنعوا شيئا وكانهم اذن لم يعرفوا من امر المتنبى الا ما عرفوا من امر جده اى لم يعرفوا شيئا ، ومهما يكن من

شيء فقد عرف المتنبي ان شفاء نفسه من تعلم اللغة لا يكون الا بالارتحال الى البادية فذهب الى بادية بنى كلب وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدة ينشددهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة اذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية . وقيل ان ابا الطيب قد ادمى النبوة في هذه البادية وتبعه بعض الاعراب فخرج اليه لؤلؤ امير حمص وقبض عليه وسجنه فترة من الوقت ثم استقنابه واطلقه . ولصقت به صفة المتنبي بعد خروجه من السجن ولازمته طوال حياته وسافرت بعد ذلك في تاريخ الادب حتى الآن . وبعد خروج المتنبي من سجنه اتجه الى مدح الامراء والرؤساء وكان سيف الدولة الحمداني يجتمع في بلاطه بصفوة علماء وشعراء عصره . فقد كان حارس الحدود الشمالية للامة العربية فلحق به المتنبي عام ٣٣٧هـ واقام عنده تسع سنوات هي قمة حياته وشعره . كان سيف الدولة فارسا شجاعا محبا للعلم والادب وفيما للقيم العربية الاصلية يعرف اقدار العلماء والشعراء ويصلهم ورأى فيه المتنبي صورة حية لما كان يتعناه لنفسه . كان المتنبي تواقا للامارة والسيادة يرى نفسه فوق الشعراء والشعراء فكانه رأى في سيف الدولة حلما متجسدا لأمانيه وأشواقه ومن هنا كانت هذه الحرارة التي تضج بها قصائده وهذا الصدق الذي يهز نفس المتلقى لشعره . فقد كان حبه لسيف الدولة عظيما لثلاثة اسباب : اولا لانه فارس الامة وحارس قيمها فهو رمز لمجموعة من القيم التاريخية والانسانية كان المتنبي اول من يعرف قيمتها والسبب الثاني ان سيف الدولة كان النموذج الحي لطموح المتنبي فقد كان يرى فيه صورة من نفسه وكأنه وهو يمدحه انما يمدح نفسه من هنا هذه العلاقة القوية التي قامت في نفس وشعر المتنبي حتى لا يجد المرء في هذا الشعر بوناشاسعا بين صورة الممدوح وصورة المادح في رتبة المجد . والسبب الثالث ان المتنبي كان يتوسل بنفوذ اميره لكي يصل الى احلامه هو الخاصة وما يرجوه من مجد لنفسه . ولكن المقادير تسد توصلت احلام الشاعر في السلطة ودمرت علاقة المتنبي بسيف الدولة ولعبت الوشاية والحسد دورا في المكيدة التي دفعت المتنبي الى مغادرة حلب عام ٣٤٦هـ متجها الى دمشق ثم بعد ذلك الى مصر حيث قصد كافور الاخشيدى الذي خيب اماله فمدحه وهجأه وتركه في النهاية متسللا الى بغداد ثم الى بلاد فارس وشيراز مدح عضد الدولة بن بويه فاجزل عطيته ثم انصرف من عنده راجعا الى بغداد فالكوفة عام ٣٥٤هـ وفي الطريق تعرض له فاتك بن ابي جهل فقاتل الشاعر حتى قتل مع ولده وغلامه على مقربة من دير العاقول من الجانب الغربي من سواد بغداد — وبهذا اختتمت حياة هذا الشاعر النباه بنفسه وسط المخاطر التي كان يتحدث عنها كقدر ملازم له . وهذه النهاية مطابقة لحركة هذه النفس الجياشة بالقلق والتوتر والطموح فلم تعرف سكونا في حياتها .

والقصيدة التي نحن بصددھا قالھا الشاعر في رثاء جدته وتقول الروايات ان كتابا من جدته لاهه قد ورد عليه وفي هذا الكتاب تشكو

الجدة لابن ابنتها المتنبي شوقا اليه وطول غيبته عنها فتوجه
 العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر الى بغ
 وكانت جدته قد يُست منه فكتب اليها كتابا يسألها المسير
 فقبلت وضمته لقلبها سرورا به وغلب الفرح على قلبها فقتلها .
 هذه القصيدة الصادقة التي تعترضها اللوعة ويسيطر عليها الال
 وقد سئل اعرابي : ما بال المرثى اصدق اشعاركم قال لاننا نقو
 واكبادنا تحترق . فهل كانت كبد المتنبي تحترق حين قال هذه القص
 ان غربة الشاعر المتصلة واختفاء أسرته يجعل لهذه الجدة التي
 ان صلته بها كانت عميقة مكانة كبيرة واساسية في حياته فهي
 الذي يربطه بأصله في الدنيا . فهو يواجه كل يوم اعداء لشعره .
 ومنافسه لشخصه بسبب اتجاهاته الفكرية وأحقادا تنمو من
 الذي يسببه اعترازه بنفسه لدرجة تجعله على وشك احتقار ال
 ومن هنا كان لصوت الأسرة المتجسد في نداء جدته وشوقها الي
 لهذا الصوت قداسة في قلبه . لانه صوت يحمل له الحب ال
 والعاطفة المجردة من الغرض والانتماء الحقيقي انتماء الدم
 لا يعرف التغير . ان حنان هذه الجدة هو الذي جعل فقدانها .
 غاية الألم لنفس هذا الشاعر الذي اعتاد المخاطر وما هو يبدو
 على صدر جدته . فليس ثمة شك في أن المتنبي كان يحن وسط
 المعارك الادبية والسياسية الى هذا الحنان الدافق الذي تفي
 تلوذ الامهات والجذات والذي كان الشاعر اشد حاجة اليه .
 الاحقاد التي تحيط به . والقصيدة تحمل كل خصائص المتنبي الغ
 ففى لغتها هذا الجلال الباهر الذي يتجلى في حساسية الاختيار ا
 للكلمة القوية الغنية بالالات والتي تلعب في علاقاتها بالكلمات ا
 وفي موقعها من الجملة دورا اساسيا في بناء صورة شعرية تجم
 الحسى والمعنوى في حرارة وصديق وخيال بعيد قادر على الم
 والادهاش والاشناع في نفس الوقت وفي القصيدة هذه الموسيقى ا
 الثقيلة الممتدة حيث اختار لها بحر الطويل بابعاده الواسعة . و
 كذلك صوره القوية الجامحة التي تتجاوز الواقع الى التجريد في
 من المبالغة المسرفة احيانا والمعقولة أحيانا اخرى ولكن اهم ما
 الى انتماء هذه القصيدة الى شاعرها المتنبي هو وجود الشاعر
 كبريائه وفخره بنفسه . هذه الذاتية الواضحة التي كان ينتقل
 الشاعر في كل بقعة يرتحل اليها وفي كل قصيدة يقولها . ح
 قصيدة حزينة من قصائد الرثاء لا ينسى المتنبي نفسه وشجاعته و
 بنفسه . وتبدأ القصيدة ككل قصائد الرثاء بالتأمل الحزين في طب
 هذا الموت المفاجيء الذي يصيب الكائنات فيسلبها هذه الهبة الغ
 المقدسة . الحياة — ان الشاعر يبدأ متماسكا يكاد يعلو على ا
 ويكاد يلجأ لتعزية نفسه وهذا العزاء الذي يلجأ اليه انها هو
 من خبرته بمصائب الدهر ونوائبه فهذه الاحداث الالهية انها هي
 غير منطقي وغير معقول خال من الارادة والقصد وهي بهذا لا ت
 اللوم او الذم لان اللوم والذم يقومان على معيارى الخير والشر
 ينبعان من الارادة وما دامت هذه الاحداث خالية من القصد والارادة

لا تستحق الثناء أو القبح . ثم يقرر الشاعر أن العدم هو الغاية وأن
النهاية هي نفسها البداية هذه الدورة الابدية التي تشمل الوجود والعدم
فالمرء محكوم بالعودة الى ما كان عليه وإلى العدم اذن سوف يصير
ولسوف ترجع الزيادة النقص من جديد . ان المتنبي لا يتمهل على اعتبار
القصيد فيلقى الينا بحكمته الثابتة المؤكدة التي اطلعت عليه خبرته
بهذه الدنيا وبعد ذلك يذهب الى التفجع على هذه الجدة
العزيزة . وهو يرى أن الشوق هو الذي قتلها شوقها
اليه ومن هنا كانت لوعته . هذا الشوق البريء الطاهر لانه شوق
الام الى ابنها او الجدة الى حفيدها . وها هو يحن الى الموت طلبا
للقرى منها ويعشق التراب وما ضم في احشائه من اجلها وبإجاء المتنبي
لبالفاته المعتادة فيرى ان هجرها كفيل بقتل البلد الذي رحلت عنه لو
كان الهجر يقتل المحبين . ويؤكد من جديد معرفته بالليالي وما تجلبه
من محن فهو لا يهتز ويكاد لا يكثرث فهو يرى ان هذه الداهية التي
نزلت به بوفاة جدته لم تزده علما بما تصنعه الليالي . هو خير مجرب
ذاق حلو الايام ومرها ولعل مرها اكثر من حلوها لديه وهذا يذكرنا
بنفس موقفه الذي يقول فيه :

وصرت اذا أصابني سـهـام تكسرت النصال على النصال
وهـان فـمـا أبـالى بالرزايـا لاني ما انتفعت بأن ابـالى

وها هو فن المتنبي يتجلى في هذه المقابلة بين السرور والغم في البيت
الذي يقول فيه :

أناها كتابي بعد ياس وترحة فماتت سرورا بي فمت بها غما

ها هو يصنع من المفارقة صورة مؤثرة من صورته التي يمتلئ بها شعره
حين يقابل بين السرور والغم وبين «بى وبها» فهي سرت به اى
بكتابه وهو اغتم بها اى بنبا وفاتها . وليست المفارقة فقط هي التي
تكشف عن فنية المتنبي فهي حيلة تقليدية لدى الشعراء وانما يميزه
الايجاز الشديد وهنا يسوى بين موته الحقيقي وموته المجازي . ثم
يحرم الشاعر على نفسه السرور هذا القاتل الذي اودى بحياة جدة
الشاعر ويعتبره الشاعر سماً محرماً على نفسه وهو تحريم غريب لأن
الفرح كالحرز يغزو النفس فلا تقدر على مقاومته ولكن هي مبالغات
المتنبي . وأبيات القصيدة تتتابع وهي تمزج بين صورة الجدة التي جاءها
كتاب حفيدها فقبلته وتعجبت من خطه وسطوره كأنها ترى نوعاً غريباً
من الغربان وهي التي يوجد بجناحها بياض . ولا شك أن عجبها من
هذا الخط انما هو لشدة شوقها اليه تمزج هذه الصورة بلوعة نفسه .
رها هو يصور تمكن حبه من تلبيها فهو حب قوى ثابت لم تستطع
الفربة والايم أن تدفع به الى السلوان أو النسيان وانما هو الموت
وحده الذي قهر هذا الحب الغلاب فكأنه يرى أن الموت وحده وهو
الذي يعد اقوى من حبها له وهو يعتبر هذا الحب والشوق والحنين

نوعاً من السقم لا يغلبه الا ما هو اشد منه فالموت اقوى منه لانه هو
الذى اذهب .

ولم يسلمها الا المنايا وانما اشد من السقم الذى اذهب السقم
وها هو الشاعر يعبر عن سبب غربته في البلاد البعيدة وكأنه يندم لفراقه
لها ويعدده عنها ولكنه يتعزى بان هذه الفرقة انما كانت لطالب حظه من
الرزق ومن اجلها ايضا فهو يسعى في الارض من اجلها ولكن هذا
الحظ قد فاتها وفاته هو ايضا . ويظهر ندمه واضحا حين يقول : وقد
رضيت بها قسما فكانه يقول بأنهما كانا كافيين كل منهما للآخر بدون هذه
الرحلة وهذه الغربة . وها هو يستسقى الغمام لقتلها بعد أن كان
يستسقى اى يطلب الحروب والمعارك . وكان الشاعر يرى أن الفراق
والغربة انما هما شيء عظيم ثقيل الوطأة على النفس فكيف يرى الموت
الآن لقد أصبح الفراق والغربة والترحال في الارض شيئا هينا صغيرا
بجانب هذا الموت الذى صارت اليه . وها هو يحاورها بمنطق الواقع
وبمنطق واسلوب حياته الذى دأب عليه فهو لا ينى يأخذ بثأره من
اعدائه ولكن كيف يأخذ بثأرها من الحمى .

هينى أخذت الثأر فيك من العدى فكيف يأخذ الثأر فيك من الحمى
وبعد هذا البيت القائم على المنطق المثير المدهش هذا المنطق المتنع
المسكت اذا به يقفز الى بيت من أجل أبيات القصيدة بل انه من
أجل الابيات في الشعر العربى قاطبة . فها هو الحزن قد بدا يمسك
بوجدان الشاعر ويملك عليه حواسه حتى لقد بدت الدنيا مغلقة المنافذ
امامه . وكأنه يقف محاصرا لا يعرف كيف يتجه وقد سدت امامه الطرق
وها هو يختبر بشاعريته الرائعة تأثير صورته البالغة الايحاء والدلالة
على الحزن والنقد . انه يقف حائرا محاصرا فهل الدنيا اغلقت دونه
الطرق أم انه لا يتحرك من مكانه لانه لا يرى شيئا انه يتوهم هنا
مجموعة من الاخيلة وهو يحسم هذا الموقف مبرهنا على صدق عاطفته
وقوة احزانه وشعوره بالحصار بهذا البيت الرائع .

وما انسدت الدنيا على لضيقها ولكن طرفا لا اراك به اعمى

هو واقف مكانه وهل يقف الا المحاصر او الاعمى نعم العمى هنا
هو عدم رؤيتها امامه وكان الدنيا كلها لا تكفى عوضا عنها . وكان
القصيدة بهذا البيت قد وصلت الى ذروة حزنها وتفجعها ومرارتها . لان
القصيدة تنعطف بعد بيتين عاديين هما :

نوا اسسنا الا اكب مقبلا لراسك والصدر الذى ملنا حزما
والا الاقوى روحك الطيب الذى كان ذكى المسك كان له جسما

تنعطف القصيدة في اتجاه جديد . اتجاه لا يناسب المقام . ان المتنبى يتجه الى الفخر الشديد بنفسه حتى في قصيدة رثاء جدته فما هو تفسير ذلك . ربما كان تعليل ذلك ان الشاعر وهو محاط بعداوات شديدة يشعر كأن هذا الحادث وانما يصور لأعدائه أن الضعف قد حل به وان ركنه قد وهن فهو يعلن بثبات ورسوخ عن مفاخره وربما كانت معارك الشاعر الكثيرة الطاحنة تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا لتأمل شيء آخر في الحياة . ها هو الشاعر يتصور أن أعداءه ان كانوا يشتمون به في هذا اليوم فقد جاء رغما لانهم ثم تستمر القصيدة في اتجاه الفخر بالنفس فخرا يحمل الكثير من المبالغات والقسوة على الآخرين . وهو فخر يوحى بنفس لا تعرف الطمأنينة تتوجس دائما للشر من الأعداء . هو يلجأ الى نوع من التماسك المصطنع ليداري هذا الخوف الشديد الذي يسكن نفسه .

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا الا لخالقه حكما
ولا سالكا الا مؤادا عجاجة ولا واجدا الا لمكرمة طعما
يقولون لي ما انت في كل بلدة وما تبتغي ما ابتغى جل ان يسمى

ويستمر الشاعر في مبالغاته حتى يقول :

وانى لمن قوم كان نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم العظما

وكما بدأ المتنبى بهذا التدبر الذي يعرف مذاق الايام ينهى قصيدته بتأكيد فهمه لها وهو فهم يدعمه الى كراهيتها ويدعو هو نفسه الى المزيد من الكراهية لها .

كذا انت يا دنيا اذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائتها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزنى ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

فهل هنى قصيدة في رثاء الجدة ام قصيدة في الفخر . ام نحن امام قصيدتين لهما غرضان مختلفان ؟ هذه هي شخصية المتنبى تؤكد وجودها وضيقها بمن حولها ومعرفتها المشائمة بالحياة ولكن مهما يكن موقف الشاعر الفكرى الا ان شعره يظل محلقا في الذرى التي اعتاد دائها التحليق عندها .

مرثية

((أحسن بالواجد من وجده))

لأبي العلاء المعري

صبر يعيد النار في زنده
كان بكاه منتهى جهده
ان كان لم يفتح على نده
الا اذا تيسر الى ضده
لم يثن بالطيب على رنده
مثل الذي يبكي على صده
وليس يرتاح الى سده
قال لنا افدوه فلم نفده
سار من التراب الى سده
كأنه الكوكب في بعده
ومخلف المأمول من وعده
واي أقرانك لم ترده
وتنزل الامصم من فنده
يجمعهم سيك في مده
فغية انفع من رشده
حثت اخا الزهد على زهده
ما يعبد الكافر من بده
صبرني امرح في قدده
ينفق ما يختار من نقده
لم يفخر المولى على عبده
يعجز اهل الارض عن رده
مثل الذي عوجل في مهده
بذمة شيع ام حمده
كالحاشد المكثرفي حشده
كحالة الباكي على ولده
عما جنى الموت على جده
من قبله كان ولا بعده
لكن كالمعدوم في وجده
وانما الشوق الى ورده
لن تنهاه القلب في وده
وكل ما يكره في مده
فنستعيز بالله من جنده

أحسن بالواجد من وجده
ومن أبي في الرزء الا الأسى
فليزرف الجفن على جعفر
والشيء لا يكثر مداحه
لولا غضى نجد وقلامه
ليس الذي يبكي على وصله
والطرف يرتاح الى فمضه
كان الأسى فرضا لو ان الردى
هل هو الا طالع للهدى
نبات أدنى من يد بيننا
يادهريا منجز أيعاده
اي جديد لك لم تبله
تستأسر العقبان في جوهها
ارى ذوى الفضل وأضدادهم
ان لم يكن رشد الفتى نافعا
تجربة الدنيا وأفعالها
والقلب من أهوائه عابدا
ان زمانى برزياه لى
كأننا في كفه ما لى
لو عرف الانسان مقداره
امس الذى مر على قربه
أضحى الذى أجبل في سنده
ولا يبالى الميت في قبره
والواحد المفرد في حنقه
وحالة الباكي لأبائنه
ما رغبة الحى بأبنائه
ومجده أفعاله لا الذى
لولا سجاياه وأخلاقه
تشقائق أيار نفوس السورى
تدعو بطول العمر أفواهنا
يسر ان مد بقاء لى
أفضل ما فى النفس يغتا لها

فأفة العاشق من طرفه
كم صائن عن قبله خده
وحامل ثقل الثرى جیده
ورب ظمان الى مورد
ومرسل الفارة مبنوثة
بخوض بحرا نفعه ماءه
اشجع من قلب خطيئة
يرى وقوع الزرق في درعه
لا يصل الرمح الى طرفه
يلقى عليه الطعن القامك
بلحظة منه فماد ونها
أمله الدهر فأودى به
فيا أبا المقتود من خمسة
جاءك هذا الحزن مستجديا
سلم الى الله فكل السذى
لا يعدم الأسمر في غابه
ان الذى الوحشة في داره
لا أوحشت دارك من شمسه

وأفة الصارم من حده
سلطت الارض على خده
وكان يشكو الثقل من عقده
والموت لو يعلم في ورده
من أدهم اللون ومن ورده
يحملة السابح في لبده
على طويل الباع ممتده
مثل وقوع الزرق في جلده
ولا الى المحكم من سرده
الحسب على المسرع في عقده
يرد غرب الجيش عن قصده
مبيضة يحدى بمسوده
كالشهب ما سلاك عن فقهده
أجرك في الصبر فلا تجده
سءاك او سرك من عنده
حتفا ولا الابيض في غمده
تؤنسسه الرحمة في لحده
ولا خلا غابك من أسده

شاعر هذه المروية التى نزود بنا طريق الحكمة والتأمل البصير في شأن الموت والحياة هو أبو العلاء المعرى . رهين الحبسين كما اشتهر في تاريخ الادب العربى ولد الشاعر أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخى عام ٣٦٣هـ بمعرة النعمان ومات بها عام ٤٤٩هـ . وبين الميلاد والموت رحلة حياة قلما شهد لها التاريخ الادبى نظيرا . فرغم آفة المعى التى لحقت به وهو في الثالثة من عمره الا انه كان مبقرية فنية تتجاوز بعطائها نطاق عصره وتمتد ببصيرتها في الزمان والمكان والكائنات فتبدع هذه الروائع الشعرية الخالدة . كان عصر الشاعر وهو القرن الرابع الهجرى مليئا بالاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة لتدهور كيان الامبراطورية الاسلامية وانقسامها الى دويلات تغلى بالاحتقاد والفتن والمؤامرات . وكان مثل هذا العصر باعنا وبالبحاح شديد على اعمال الفكر في شئونيه . وكانت المراءة هى حصاد من يضع فكره وعقله في معتركه .

قام الشاعر باعداد نفسه اعدادا هائلا ليقوم بدور الشاعر الفيلسوف المفكر فكان اعجوبة في علمه وذكائه وفهمه يقول عن نفسه « ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسى باجتماع علم من عراقتى ولا شامى وانصرفت وماء وجهى في سقاء غير سرب لم أرق منه قطرة في طلب أدب ولا مال » .

رحل الى بغداد عاصمة الخلافة المتداعية وهو يحلم باعترافيه
بشأنه الخطير . وقيل آراء كثيرة في أسباب رحلته الى بغداد و
في السادسة والثلاثين من العمر ولكنه دفع عن نفسه كل ادعاء
ذهب الى بغداد طلبا للمال او الشكوى من ظلم لحق به ولكنه ذ
طلبا للعلم وحبا في خزائن كتبها ولكن بغداد اساءت اليه فلم تح
ضيافته ولقى الاهانة من بعض العلماء والنحاة وتروى الدكتورة
الشاطيء في كتابها عن أبي العلاء هذه الواقعة : يذكرون أن أبا الع
كان يوما بمجالس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى و
يتبع عيوبه فقال أبو العلاء لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قصيد
لك يا منازل في القلوب منازل د

لك يا منازل في القلوب منازل لكناه فضلا فغضب السيد المرتضى وأه
فسحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه وقال لمن يحضره : أندرون
شيء أراد الاعمى يذكر هذه القصيدة ؟ فان للمتنبي ما هو أجود منه
يذكره قالوا النقيب السيد أعرف فقال أراد قوله :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لى بائى كامل

فإذا أضفنا الى هذه الاهانة اهانات أخرى سبقتها فهنا
عودته مثل النفس من بغداد عازما عن الناس حزينا كئيبا معتزلا مؤ
جدران بيته على اتساع الدنيا كلها . كان نباتيا لا يأكل اللحم .
نفسه بالشدة وراضها رياضة عفيفة في محاولة لقتل شهوات نف
وأخراج الدنيا من قلبه ورغم انه يشكو حبيها كما يقول « لا اكتم
مولاي ما أنت به عليم — ان أسفى على الدنيا طويل . أحب الدنيا
كانها تحبني والغريزة عن الرشد تذبني . » أحب الدنيا وألها ليد
في . وقد تبست من بلوغها والياس مريح فالام التشوق والضلال « ر
انه يشكو حبيها فقد انتصر وقهرها في نفسه واستطاع ان يغوص
أهياق بحارها ليستخرج لؤلؤ الحكمة التي تجلت في شعره ونثره د
السواء . يتحدث الدكتور طه حسين عن شعره فيقول « ليس لدي
من شعر أبى العلاء الا ثلاثة دواوين : أولها سقط الزند والمشهور
يشتمل على شعره أيام الشباب وان كان ذلك موضع بحث فانا ذ
فيه قصائد نظمت في بغداد وبعد رجوعه الى المعرة بل نجد قصيدة نظم
سنة اربع عشرة واربعمئة وهى الطائفة التى بعثها الى خازن دار الع
ببغداد ويحسم طه حسين هذه القضية بقوله : فلا شك في أن
العلاء انما لاحظ أن شعر الشباب في سقط الزند أكثر من ش
الكهولة والشيخوخة فحكم عليه هذا الحكم ولعل الكتاب قد جمع ب
رجوع أبى العلاء من بغداد ثم زيد عليه ما جد من الشعر . والثا
الدرعيات وهو ديوان صغير يشتمل على أشعار وصفية فيها الد
خاصة اما الديوان الثالث فهو اللزومات وهى أكبر الدواوين وأجله
خطرا نظمت كلها في الطور الثالث فهتل حياة عقله ووجدانه وخلق

احسن تمثيل «ولأبى العلاء مؤلفات نثرية لعل أشهرها رسالة الغفران ويحظى أبو العلاء المعري باهتمام شديد تجاوز النطاق الاقليمي العربي الى المجالات العالمية فقد اهتم به المستشرقون اهتماما كبيرا وذلك نظرا لما في أدبه من نظرة فلسفية عميقة للكون والحياة . ولقد اتهم أبو العلاء في عقيدته ولكن المدافعين عنه وجدوا أدبه أقوى الحجج على ايمانه واذا كانت صعوبات حياته وفساد عصره قد قاده الى رأى قاس في الناس والاشياء فان هذه الصعوبات نفسها كانت مدخل روحه الى رياض الحكمة والشعر بحيث عاد اليها من رحلة حياته القاسية بهذا التراث الضخم من الشعر والنثر الذي يضافه بفخر ارفع ما كتب في ادب اى امة على الارض هذا أبو العلاء المعري . اما قصيدته فهي واحدة من اروع المراثي التي كتبت في الشعر العربي في كل عصوره . في هذه القصيدة القوية البناء والجزلة العبارة نعث على كنز غنى فياض بالحكمة واذا كانت المراثي تكتب للتفجع ونثر فضائل المتوفى فان لأبى العلاء المعري منهاجا متميزا . فهو لا يقفل الاضاعة الاخلاقية للفقيد ولا يهمل تصوير لوحة الحزن عليه ولكنه يجمع الى ذلك كله قدرة خارقة على النفاذ من الخاص الى العام . على تجاوز الحزن الاصفر الى الحزن الاكبر يملك ان يرى الكليات الشاملة في الجزئيات العابرة وهذا دور الشاعر الحقيقي . الذي يرى في التجربة الذاتية معبرا الى التجربة الجماعية . هذه القصيدة قالها أبو العلاء المعري في رثاء ابن جعفر بن على بن المهذب . واذا نظرنا اليها نظرة شاملة وجدناها في تدبر امر الحياه والموت تدبرا يشفى النفس من همها الثقيل ولهفتها وغيرتها والتفجع عليها . هي قصيدة في السلو عن الدنيا والعزاء والتطهر : تبدا برفع الحزن عن النفس لتقودنا الى الحزن الاكبر وكأنه يرى الدنيا مسرحا للأحزان ومن ثم لا تستحق كل هذا التفجع . وعلى المرء فيها الا يستسلم لمواجعة وارزائه فان فعل واستسلم فسيقوده ذلك الى الانطفاء بدلا من التوهج والنشاط نجد الشاعر يبدأ القصيدة موصيا نفسه التي يبدو انه يدير معها حوارا خفيا « منلوج » يوصي الشاعر بالصبر حتى تمتلئ النفس بالقوة لاحتمال الحياه وما تأتى به الايام . فهو يرى ان الاسى يستنفذ الطاقة حتى يكون جهد الحزن ضائعا كله في البكاء وحتى لا يكون قادرا على غيره وكان الشاعر يرى في البكاء شيئا تافها سهلا اذا واجه به المرء الرزايا انها يطلب الشاعر للمرء جلدا وقوة وصبرا يستعين بها على بلاء الايام . ولكن الشاعر يضعف ويأمر مرة أخرى بالبكاء لأن جعفر لا نظير له . ويميل الى بيان فضل المراثي شأن التقليديين من الشعراء الذين يلحون على اظهار فضائل الفقيد وتوشك الابيات ان تهبط الى المألوف من المعاني لانها جنحت الى المألوف من الاغراض . فهو يشير الى تفوق جعفر على اقرانه ويقيم الاتيسرة الفنية على مقارناته التي قد تتوسل بالمنطق والحجة العقلية والتلاعب الذي يظهر تمكنه الشديد وقدرته في سبك جملة في يسر وبراعة .

مثل الذى يبكى على صده

ليس الذى يبكى على وصاه

ويستمر فى الاستدلال على المعنى فى البيت الذى يليه موضحا أن العين ترتاح لما يريحها وتتعب مما يتعبها . فليس حب جعفر بعجيب وهو الذى يريح النفوس وتتهنى هذه النفوس قسرية منها . ويبدو الشاعر وكأنه يعتذر عن طلب السلوان والتوصية به فهو يشير الى أن هذا الحزن كان سيغدو فرضا لازما لو أنه كان فداء نافعا للفقيد وبخلنا به عليه . ولكنه نجم صاعد الى مكانه الحقيقى وما هو الذى كان قريبا منا صار بعيدا كأنه الكوكب فى بعده الشاسع . ان الشاعر لا يقف عند صفات هذا الفقيد العزيز لأنها تبدو مستقرة فى نفس من يعرفه وهى واضحة ظاهرة لا تحتاج الى تذكير بها ولا يحتاج الشاعر فى هذا المقام العصيب الى لمغالبة الحزن وفهم ظاهرة الموت فى ضوء ظاهرة الحياة وما هو يلتمس المدخل الى جوهر القضية . انه الدهر . هذا العدو الغامض للحياة والاحياء وهو يخاطبه معانبا لاصقا به صفة العداء فهو ينجز الوعيد ويخلف الوعد . وما هو يجرد منه كائنا عاتيا قاسيا لا يغلبه أحد ولا ندله يستعصى على الموت . فهو يأسر العقبان تلك الطيور القوية الماهرة التى تجيد التحليق فى الأعماق العالية ومع ذلك فالدهر يأسرها من آفاقها كما يأتى بالوعل الشارد من جبهه العالى . الشاعر يصف الدهر بالعدوانية فهو سريع الاذى ومخلف للظنون التى تأمل الخير منه وهو قوى باطش لا يفلت منه مخلق فى الفضاء ولا هارب فى أعلى الجبال وهو كذلك لا يميز بين الخبيث والطيب فهو يسلكهم فى خيط واحد ليذاهمهم بسيله الطامى الذى يعلو مده فيطوى الاخبار والاشرار هل الدهر هنا يعنى الزمان كما نفهم من مدلول الكلمة اللغوى ام أن الدهر قوة ذات ارادة . ان ملامح هذا الدهر الذى يجرد منه الشاعر كائنا غامضا يلتبس مع الموت فى صورة تكاد تكون متشابهة والشاعر بعد ان وجه الاتهام قاسيا لهذا الدهر يولى وجهه شطر الحياة والاحياء ليقدّم لنا جواهر الحكمة الشعرية التى يبدو أن الحديث الاليم قد فجرها فى نفسه . ها هو الشاعر يتجه الى نوع من النصيح بالاستقامة وكأنه ينظر فى هذه اللحظة الى ختام الحياة فيرى أن الرشد أجدر بها من الغى ما دامت تنتهى بالموت والشاعر لا يفعل ذلك بطريقة مباشرة فجأة فيقع فى الوعظ الذى يقدر عليه صغار الشعراء وانما يرتفع ليرسم صورة اخلاقية ذات دلالة ومغزى فى مثل هذا المقام . انه يحاول أن يحث العايب اللاهى على الاستقامة واعمال عقله فى ما يرى فى هذه الدنيا وهو موثق ان يعاقبه على هذا الغى ثم يلقي بهذه الحكمة التى اعترضها من صميم خبراته بالحياة ومن غمار أحداثها .

تجربة الدنيا وافعالها حدث أخا الزهد على زهده

ثم هو بعد ذلك ينتقل الى تصوير الاهواء التى تستولى على النفس فتجعل القلب عابدا لها وكأنها صنم من الاصنام . يلح الشاعر فى تصويره للزمان على استحضار صورة الموت :

ان زمانى برزايه لى
كأننا فى كفه ماله
صيرنى أمرح فى قدده
ينفق ما يختار من نقدده

يجردنا أبو العلاء فى هذا البيت من كل ارادة امام الزمان الذى
أضافه الى نفسه ثم لجأ الى التعميم وذلك لانه حين تحدث عن
الرزيا كان يعرف ان حياته ليست مثل حياة الآخرين فقد يكون نصيبه
منها اعظم واكبر اما حين يتحدث عن غلبة الموت فهنا يستوى الجميع
ولا ارادة لى . ثم يخلص من هذه التأملات الحزينة الى بيت يوشك ان
يرتفع بالقصيدة كلها لو لم يكن فيها بيت اخر فى مستواه .

لو عرف الانسان مقاداره لم يفخر المولى على عبده

هذا جوهر المساواة الانسانية فنحن امام الموت مجردين من الارادة
سجناء فى أجسادنا التى يستوى فيها العبد وسيداه ويلجأ أبو العلاء بعد
ذلك للحديث عن عجز الانسان هذا العجز الذى يجعل منه الشاعر وسيلة
لاقتناعنا بالحقائق القاسية فى هذا الوجود فمن ذا الذى لا يصمت مقمحا
امام هذا التحدى :

أمس الذى مر على قربه يعجز اهل الارض عن رده

ثم يستمر أبو العلاء فى تتبع صور المساواة امام الموت هذا القاهر
الغلاب فالشيخ الذى مكث طويلا فى الارض حتى بلغ ارذل العمر سواء
هو والطفل الذى عوجل وهو فى المهد . والميت الذى عبر الى قبره
لا يبالي بالذم ولا بالمجد والواحد كالخشد الكثير هذه صسور متعددة
للمساواة مساواة الواحد بالجميع ومساواة من يبكى على
آبائه بمن يبكى على ابنائه فجوهر الفقد واحد ويذكرنا هذا البيت بنظيره
فى التراث العربى .

وقالت أتبكي كل قبر رأيته
فقلت لها ان الشجا يبعث الشجا
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
دعيني فهذا كله قبر مالك

ولا يحاول الشاعر أن يخرجنا من الدنيا دون أن يشير الى هذا
الجانب المبغى الذى يجعل الموت اضاءة للحياة والنهاية شحذا للبداية
فهو يعود مرة أخرى الى الحديث عن قيمة الاعمال الطيبة فى الحياة
حيث يحث الانسان على اكتساب الاعمال الخيرة هذه الاعمال التى تدفع
اليها السجاياء الحسنة والاخلاق الكريمة ولكن الشاعر يقطع استرساله
ليتحدث مرة أخرى عن طبيعة الحياة . وكيف يسعد الانسان حين يدعى
له بطول العمر وليس فى الطول غير الالام التى يتجرعها . وكيف ينجو
الانسان من مصيره وأفضل ما فيه يغتاله ودأؤه ودأؤه .
فأمة العاشق من طرفه وأمة الصارم من حده
والشاعر يذكرنا بعمر الخيام فى هذه الابيات .

كم صائون من قبله حـده
وحامل ثقل الثرى جيد
ورب ظمآن الى مـورد
سلطت الارض على خـده
وكان يشكو الثقل من عـده
والموت لو يعلم فى ورده

ويتحدث أبو العلاء عن الفرسان الذين يتسمون بالمهارة فى الحرب ولكن هذه المهارة لا تجديهم شيئاً . ويختتم قصيدته بمثل مابداً بها أنه يدرك ان الحزن مجرد ضياع للجهد والوقت والعمر فنصح بالصبر والتسليم لله .

سلم الى الله فكل الذى ساءك او سرك من عنده

ولا ينسى بالطبع أن يشير الى الرحمة التى تؤنس الفقيد داعياً الله بأن لا تقفر داره . هذه القصيدة التى تستولى الحكمة على معظم أبياتها تعطينا صورة لهذا التفكير القائم الذى كان يظلل قلب وعقل — أبى العلاء ولكن هذا التفكير ليس متجهاً هذا الاتجاه العدمى رغم تسليمه بالعجز فى مواجهة الموت بل هو ينادى بالحياة الصحيحة السليمة الغامرة بالقيم والاعتماد على النفس والاهتداء بالعقل . ان صورة الموت فى هذه القصيدة غالبية دون شك ولكنها مدخل للحياة ورفض للحزن الذى يقعد النفس عن طلب المعالى . واذا كان الشاعر يخاضنا بصورة العجز فلكى يوطن النفس على احتمال المكروه وعلى بعث القيم النبيلة فى الحياة مثل المساواة والحرص على الفضيلة وفيها كذلك دفع للاتهام الذى كان يوجه الى أبى العلاء فى أمر عقيدته . وكما أن هذه القصيدة يمكن أن توصف بأنها من الموت فهى كذلك قصيدة باهرة عن الحياة .

لقد أنصبتنى أم قيس

من شعر كعب بن سعد الفزري

لقد أنصبتنى أم قيس تلومنى
تقول الا يا استبق نفسك لا تكن
كلتى عظام او كهلك سالم
اراك امرا اترى بنفسك عامدا
ومن لا يزل يزجى بغيب اياه
على قلت يوشك ردى أن يصيبه
الم تعلمى ان لا يراخى منيتى
مع القدر الموقوف حتى يصيبنى
فانك والموت الذى تر هبينه
كذاعى هديل لايجاب اذا دعا
وذى ندب دامى الاظل قسمته
وزاد رفعت الكف عنه عفاة
وشخص درات النبس عنه براحتى
ومنشقى اعطاف القميص دموته
فقلت له : قد طال نومك فارتحل
سحيرا واعجاز النجوم كأنها
ومن لا ينل حتى يسد خلاله
وعوراء قد قيلت فلم استمع لها
وما انا للشيء الذى ليس نافعى
وأعرض عن مولاى لو شئت سبنى
ولن يلبث الجهال ان يتهموا
وأذكر أيام العشرة بعد ما
ولست بهمد للرجال سريرتى
وقوم يجرون الثياب كأنهم
وقد نفر الليل النهار والبست

وما لوم مثلى باطلا بجبيل
تساق لغبراء المقام دحول
ولست لميت هالك بوصيل
مرامى تغتال الرجال بفول
يجوب ويفشى هول كل سبيل
الى غير ادنى موضع لمقيل
قمودى ولا يدنى الوفاة رحيلي
حمالى لو ان النفس غير عجول
على ومسا عذالة بغفول
ولا هو يسلو عن دعاء هديل
محافظه بينى وبين زميل
لاوثر فى زادى على اكيل
لا نظر قبل الليل أين نزول
وقد سد جوز الليل كل سبيل
وما ذاق طعم النوم غير قليل
فساطيط ركب بالغفلة نزول
يجد شهوات النفس غير قليل
وما الكلمة العوراء لى بقبول
ويغضب منى صاحبي بقؤول
وما كل يوم حلمه بأصيل
أخا الحلم مالم يستعن بجهول
أميل غيظ الصدر كل مميل
وما أنا عن أسرارهم بسؤول
نشأوى وقد نبهتهم لرحيل
سماوة جون مجنح لأصيل

شاعر هذه القصيدة ليس واحدا من أعلام الشعراء الذين سارت
بذكرهم الركبان واحتفل بهم النقاد وروت لهم كتب الادب الروايات عن
حياتهم وشعرهم وانما هو شاعر فرض اسمه على الكتب المتخصصة في
تمحيص الشعر العربى مثل بلوغ الارب والسمط والاغانى والخزانة .
انه كعب بن سعد الفزري أحد بنى سالم بن عبيد بن سعد بن كعب ينتهى
نسبه الى قيس بن عيلان وبعض الكتب ترفع نسبه الى الجد الاخير
وبعضها يوجز في ايراد أسماء الاجداد وكعب هذا اغلب عليه لقب كعب
الأمثال « لكثرة ما فى شعره من الأمثال وفى الإمالي انه شاعرا اسلامى عاش

وأبدع شعره في العصر الأموي وهذا ما يؤكد الطابع العام لهذه القصيدة .
الى تكاد تنتمى بقيمتها الفنية والموضوعية الى العصر الجاهلي .
ولما كان العصر الأموي انما هو رجعة فنية كبيرة الى الصورة الفنية التي كان
عليها الشعر الجاهلي فان هذه القصيدة لا تصبح غريبة في عصرها الذي
قيلت فيه وقد وردت هذه القصيدة في مختارات ابن سعيد عبد الملك «
ابن قريش بن عبد الملك المعروف بالاصمعي وهي المختارات التي تحمل
اسم الاصمعيات نسبة الى جامعها والنظرة الشاملة بعد التراءة المتعمقة»
للقصيدة تلحظ عناصر الاتجاهات الفكرية والفنية والفلسفية الاساسية
التي ازدهرت في الشعر الجاهلي وحاول الشعر الأموي الارتداد اليها
باسلوب يستوعب خبرة التجربة الاسلامية الكبيرة التي غيرت النطاق
الفكري الذي كان سائدا كما خلقت معايير جديدة في مجال الاخلاق
والعلاقات الانسانية وبناء المجتمع ذاته . فالاطار العام لقصيدة كعب بن
سعد الغنوي يمت للشعر الجاهلي بنسب اصيل يظهر جليا في هذه الانفاس
التي تعيد الينا الاتجاه الى الحكمة الذي برز فيه واقام اسسه الاولى
زهير بن ابي سلمى : فالحكمة كمفهوم انساني يمتص خبرة عصر بأكمله
تنتشر في هذه القصيدة الرائعة كما تعطى القصيدة كذلك احياء قويا
بصلتها المباشرة بهذا العالم الذي يحفل بالمغامرة والمخاطرة عالم
الصعاليك الفسيح الذي يحفه الغبار وتكن فيه الاخطار . عالم يصبح
فيه التخلي عن الاحساس بالامن هو أعظم الضمانات للامن .

يذكرنا بمخاطرة عروة بن الورد حين يقول :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ولكن المخاطرة هنا في هذه القصيدة ربما كانت من نوع اكثر ترفا
من مخاطرة الصعاليك الذين دفعهم نبذ المجتمع لهم الى ركوب الاخطار
واصطناع الاسفار والفزوات . انها مخاطرة الهدف منها الحفاظ على
كبرياء الشاعر ومخاطرة لاعلاء شأن الذات وليس لدفعها درجات في سلم
الحياة الاجتماعية . وتبرز في القصيدة هذه القدريّة الحتمية التي كان
شعر طرفه بن العبد رائدا في تصويرها حين يقول :

الا ابهذا الزاجري احضر الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلصي
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غدا

هذه الحتمية التي جعلت من الحياة اختيار قاسيا بين اعدام الذات
في أخضاعها التام للعرف والمواضع والحتمية وبين اغتنام الحياة فوق
لهب التمرد وتحت سيطر الاحتجاج الاجتماعي واستنكاره وليس ثمة شك
في ان القصيدة « لقد انصبتى ام قيس » تنفرد بتصوير تجربة اخرى باللغة
التفرد والذاتية وهي لا تلتقي مع تجارب الصعاليك أو زهير بن ابن سلمى
أو طرفه بن العبد الا لتفترق وهنا عظمة اي شاعر اصيل . ان الشاعر
الحقيقي هو حفيد أسلافه فهو يذكرك باجداده الشعراء في الوقت الذي
يعتز بوجهه هو وموهبته الذاتية التي تميزه عنهم . وهكذا نرى صورة

جلية لنمط الصياغة الجاهلية وعصر بنى امية يذكركنا بزهر وطرفة وغيرهم ولكن الذى يبقى هو صدق انفس بنى امية فى هذه القصيدة الحارة الصادقة التى تضرب بجذورها الفكرية والاخلاقية فى تراث القصيدة العربية . وقد اختار الشاعر للقصيدة بحر الطويل فعولن مفاعيلن مفاعيلن ليعبر من خلاله عن هذه الموجات المشحونة بالتوتر والتأمل والحركة . انه بحر واسع الاطراف هادى كالصحراء متموج بطيء الايقاع يعطى للشاعر فرصة حامية للتفكير والتأمل . وهو بحر الحركة والتدافع اذا فاضت بالشاعر هواجسه ، وتبدأ القصيدة بظهور « أم قيس » لاثمة عاتبة محذرة للشاعر ومنذرة بالاذى الذى يمكن أن يلحق الشاعر من جراء تمسكه بفضائله كتمارس شجاع فمن هى أم قيس هذه ؟ انها امرأة كثيرة الظهور فى القصائد الجاهلية والاموية ولكن باسماء مختلفة وهى قد تكون زوجة الشاعر المحبة له الخائفة عليه وقد تكون جزءا من هذا التقليد الفنى الذى تفتتح به القصائد . فكما اننا نعثر دائما فى الشعر الجاهلى وغيره على هذا الخليل الذى يحرص الشاعر على اصطحابه فى كل رحلاته فاننا نجد كذلك امرأة مختلفة الاسماء والاوزاع والمسافة من الشاعر ولكنها فى معظم الاحيان امرأة عاتبة مشفقة على الشاعر مما يجلبه على نفسه ، انها مرة تكون أميمة التى يخاطبها ابو ذئيب الهذلى حين يقول :

قالت أميمة ما جسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

وقد تكون زوجة مشفقة كزوجة عروة بن الورد التى تحذره من المخاطرة بنفسه طلبا للفنى فإرد عليها :

دعنى للفنى اسمى فانى رأيت الناس شرهم الفقير

وقد نجدها من الجانب المناوىء كما فى قصيدة السموأل بن عادىاء حين يقول :

تعرنى أنا قليل عدينا فثلبت لها ان الكرام قليل

فأم قيس اذن فى قصيدة كعب بن سعد الغنوى قد تكون زوجة او أما أو صديقته أو اختراعا فنيا يجرى به على سنة القصيدة العربية التقليدية وقد تكون تجريدا من نفسه لهذه الشخصية الخيالية اراد بها توجيه السؤال الى نفسه واللوم لها على استهائته بالمخاطر التى يعرض نفسه لها . ويبدو ان أم قيس هى امرأة حقيقية وهذا واضح من قوله « لقد انصبتنى » فالافتتاح بلقد يفيد التحقيق وانصبتة اتعبته لانها اكرت من لومه وعتابه وتحذيره ويبدو أنها استخدمت كل ما تستخدمه الانثى المحبة من وسائل الضغط لتمنعه من مواصلة مغامراته . وكان من الممكن أن يبدأ الشاعر قصيدته بلومها مباشرة من خلال ندائها له ان يرحم نفسه أو يجنبها

المخاطر ولكنه آثر أن يفتتح القصيدة بالاعلان عن تعبه وضيقه من هذا اللوم الشديد على نفسه . وهو يعتبر هذا اللوم مجافيا للصواب والحق . لانه وديع يؤثر السلامة فيكون اللوم في غير موضعه بل لان لوم مثله يعد باطلا فمثله لا يلام لانه لا يرتكب جرما اذا كانت مخاطراته من اجل اكتساب الشرف والذود عن الاهل والعرض . انه يستنكر هذا اللوم لانه لا يليق بمثله فهذا اللوم ليس جميلا وقد آثر ان يترفق بهذه المرأة التي يعرف جيدا ان لومها يأتي من اشفاقها عليه ومحبتها فانتهى وصفا مخفيا لهذا اللوم الذي اعلن هو انه قد اتعبه فقال بأن هذا اللوم غير جميل وكان يمكن ان يستخدم لفظا اكثر غلظة لولا ان العلاقة التي تربطه باللائمة علاقة حميمة وهدفها منه هو المحافظة عليه هو اذن قد اعلن في هذا البيت تقريبا عن تقرير موقف ام قيس منه واحساسه وتقديره لهذه المواقف ووقعه عليه ثم اكد موقفه من هذا اللوم وحكمه عليه . فكانه في الواقع قد لخص في بيت واحد القصيدة كلها : وقوع اللوم — ورده عليه مع التركيز على التأثير وابرز شخصيته فهو بيت جامع او هوبيت القصيدة ومعجراته انه في كلمات قليلة قد قال كل شيء تقريبا بعد هذا البيت الذي يبدو ان الشاعر قد اراد به التنفيس عن نفسه ندخل الى صميم العتاب الذي وجهته ام قيس الى الشاعر . وهو يبدأ بهذا النداء :

تقول الا يا استبق نفسك لا تكن تساق لغبراء المقام دحول

وحذف المندى في هذا البيت يؤكد امتلاء نفس وقلب هذه المرأة بهذا الشاعر المغامر فهي غير محتاجة الى ان تشير اليه او تعلن اسمه فهي تحس به ملء كيانها وكأنها تتعجل هذا الراحل المخاطر تريد ان تمنعه مما هو ذاهب اليه فكان الحذف هنا لاختصار الزمن والذي تريده هو ان تسرع بالنصح والعتاب لعله ان ينزجر فيقلع ما يهملها الان هو الهدف وعليها ان تصل اليه في اسرع زمن ممكن وقولها تساق لغبراء المقام دحول : كتابة عن القبر . وهي تعتمد هذا التصوير الثبيح للقبر حيث شبهته بالبشر المفتره التي تاكلت جوانبها وصارت لها فجوات كالكهف وهو مشهد موحش مخيف تريد من وراء تصويرها هذا أن تردع شاعرها وقولها « تساق » يكشف عن ايمانها بحتمية الموت وان كان هذا التعبير : لا تكن تساق مركب من الارادة ومن الاجبار فهي تنهاه من السير الى حتمية مصيره . هي تريد في الواقع ان توضح ان الموت حتمية يساق له المرء سوفا وهذه طبيعة الموت الغالبة ولكنها في نفس الوقت تؤكد أن شاعرها يلعب دورا لا اراديا في السير الى حتفه ومن هنا فهي تنهاه وتزجره بعد أن تجسد امامه صورة القبر تجسيدا مخيفا مفزعا تنتقل الى تصويره هو بعد الموت كما مهلا لا قيمة له . بعد ذلك تأخذها عليه الشفقة فتدعو له بالنجاة من هذا المصير القاسي . ثم تستمر في توجيه الخطاب والعتاب فهو يرمى بنفسه عامدا الى حيث الاقدار القاسية التي تغتال الرجال . وهي تعترف ان حياة المرء مشرفة دائما على الهلاك يوشك الموت ان يصيب الانسان فيبعث به الى مكان بعيد ويستخدم كلمة مثيل للعالم الاخر كأنه مكان الراحة يصل اليه الانسان بعد الموت

وبعد هذا العناب المشفق الذى يستخدم الحنوتارة والتخويف تارة تدخل القصيدة الى افق جديد وهنا تتبدى لنا شمس الحقيقة الساطعة وسط ظلام الحيرة والشكوك المريرة . يصدر الشاعر حكمه الصارم — بعد ان اخبر الحياة والموت . فيجىء هذا الحكم مليئا حتى الحافة بالمرارة التى تشرف بالمرء على يأس من كل شيء . ان القدر الذى احكم خيوط المصير لا يجدى معه القعود أو الرحيل : ألم تعلمى أن لايرأخى منيتى . قعودى ولا يدنى الوفاة رجلي ويا لها من دقة في التعبير فهو هنا يقيم نوعا من المقابلة بين يراخى ويدنى وبين القعود والرحيل . فهو هنا يستخدم كلمة التراخى للتعبير عن الموت ان المساومة اذن ليست الا على قليل من الزمن وحتى هذا القليل ميئوس تماما من الحصول عليه عن طريق القعود أو الرحيل . ولا شك ان نفور الشاعر من التخاضل واثار السلامة قد وجد التعبير المثالى عنه في كلمة القعود هذه الكلمة التى توحى بالتكاسل وضعف الهمة والسقوط . ثم يأتى هذا البيت الحاسم في تقدير موقف هذا الفارس الشجاع الذى يخاطر وهو يعلم ان القدر ممسك بالخيوط كلها تماما كما يقول طرفة بن العبد .

لعمرك ان الموت ما اخطأ لكطول المرخى وثنياء باليد

الشاعر يعلن وقوفه مع القدر . ياله من تضامن يكشف عن جسارة الفارس كما يكشف في نفس الوقت عن هذا التقبل الذى تخلقه البصيرة في وجدان هؤلاء الذين وهبوا الحكمة وشجاعة النظر الثابت في قلب الاشياء . وكأنه شديد الحماس لهذا القدر الموقوف عليه : اى قدره الخاص . قدره وحده انه يتضامن معه ويتبدى هذا جليا في البدء بالحرف مع وكأنه حذف كلمة « أنا » لاهتمامه بالعمية أكثر من اهتمامه بتأكيد ذاته هو يعلن تضامنه مع قدره الخاص في الحياة والموت حتى يصيبه الحمام ثم يوضح لها موقفها منه وهو موقف يرى أنه لا جدوى من ورائه لانه لن يغير من طباعه ولا من قدره ولا من ارادته . هو يقول لها انها متضامنة مع الموت ضده وان موقفها هذا عبث كهؤلاء الذين يدعون هديل — والهديل فرخ الحمام تزعم الاعراب انه فرخ كان على عهد نوح فمات ضيعة وعطشا فيقولون انه ليس من حمامة الا وهى تبكى عليه . ومن هنا سمى بكاء الحمام هديلا . وهذا تفسير اسطورى ولكن الشاعر استعار هذا الموقف الخيالى للتعبير عن استحالة انثائه عن عزمه أو رجوعه عن فروسيته .

كداعى هديل لايجاب اذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هديل

وبعد هذا البيت تنتقل القصيدة الى مرحلة أخرى هي مرحلة اقرب الى الفخر منها الى الدفاع عن النفس فهو يعطى صورة لصفاته النادرة واخلقه الرفيعة هذه الصفات التى تأتى الشجاعة في مقدمتها ثم الحكمة وقبول الواقع ببصيرة نافذة . يتحدث الشاعر عن وفائه ومودته وعفته وكرمه .

وذى ندب دامى الا ظل تسميته
وزاد رفعت الكف عنه عفاة
وشخص درأت الشمس عنه براحتى
محافطة بينى وبين زميلى
لاؤثر فى زادى على اكيلى
لانظر قبل الليل اين نزولى

وكل هذه الصور انما ليؤكد بها الشاعر كرمه وايثاره لغيره وحرصه على
أصدقائه فهو رجل يحبى الغريب ويأوى الطريد الى جانب هذه الصور
البليغة . فهو يصور النجوم بقطيع بقر الوحش وهى تهبط من النلال .

ومنشقى أعطاف القميص دعوته
فقلت له قد طال نومك فارتحل
سحيرا وأعجاز النجوم كأنها
وقد سد جوز الليل كل سبيل
وما ذاق طعم النوم غير تليل
صوارا تدلى من سواء أميل

وبعد أن يعرض لنا الشاعر صورا من كرمه يبرهن على أن الكرم لا يكون
من فضل المال ولا مما يبقى بعد الاكتفاء فالكريم وجود بما عنده ولو كان في
حاجة اليه . وهو هنا ينبه الى خدعة تلجأ اليها نفس البخيل حين يقول
لنفسه لابد من سد حاجتى أولا قبل أن اعطى الآخرين فالذى ينتظر شبع
النفس حتى وجود بماله سيجد أن حاجته لا تنقضى .

ومن لا ينل حتى يسد خلاله يجد شهوات النفس غير قليل

ثم يتابع الشاعر بعد ذلك عرض صفاته العالية فهو لا يقبل القبيح من
الكلام بل أنه يؤكد ترفعه حتى عن سماع هذه الكلمات القبيحة فهو لا يقبل
مثل هذا القبح . وهذه عفة وترفع وكبرياء بل هو نموذج للكياسة والحقق
والحرص على مودة الآخرين فهو لا يثرثر بما يغضب صاحبه . وهو يترفع
عن الجهال فلا يترك نفسه يتردى الى جهالتهم فاذا صور علاقته بأهله
وجدناه حريصا غاية الحرص على هذه العشيرة التى تملك عليه جوانب
نفسه فهو لا ينسى أهله ابدا حتى لو أساءوا اليه بل يعمد الى التأمل
والصبر والمفاضلة بين الاحتمالات .

واذكر ايام العشيرة بعد ما أميل غيظ الصدر كل مميل

وهو رجل حكيم لا يسرع بقطع الاسباب بينه وبين أهله او بينه وبين غيره
من الناس رغم أنه ليس غرا ساذجا فهو يعرف أيضا أن الناس ليسوا
ملائكة وأن الحذر منهم شيمة العاقل اللبيب فهو لا يترك أسرارهم نسيل من
شفتيه لأنه يعرف قيمة هذه الاسرار ولا يظهر أعماقه أمام الآخرين خوفا
من أن ينهشوا هذه الاعماق الدفينة .

فولست بمبد للرجال سريرتى وما أنا عن اسرارهم بمسؤول

انه يحترم حقوق الآخرين كذلك فى الحفاظ على اسرارهم وسرائرهم .
وهذه هى الفروسية والنبل . لا يبحث لاحد عن نقطة ضعف . انه يحبى

نفسه بشرف وكرامة وتدفعه فروسيته ونبله الى الاعتراف بنفس الحق للرجال الآخرين . وهذه صورته من صور الحرية والمساواة ثم يختتم الشاعر قصيدته بالحديث عن مخاطراته بنفسه واسفاره وما اجمل تعبيره .

وقد نفر الليل النهار والبست سماوة جون مجنح لاصيل

هو يريد ان يقول ان الليل يغالب النهار ويدفعه الى الخروج من الكون فيها هي الدنيا تلبس سماء اقرب الى لون المساء عند الاصيل . هذه القصيدة الرائعة لكعب بن سعد الغنوي تعد دستوراً راقياً لطراز من الرجال جديرين بخلقهم وصفاتهم ان يصنعوا عالماً فاضلاً . فالشاعر وهو يتحدث عن نفسه لا يسقط في الفخر الذي ينفر النفس منه وانما هو رجل يتحدث في لهجة اقرب الى تطهير الذات منها الى الاستعلاء فهو لا يذكر الا الصفات التي ينبغي أن تكون دستور الانسان المثالي لقد جمع الى الشجاعة الحكمة والى العفة الكرم والى احترام النفس احترام الآخرين والى الولاء للعشيرة الخبرة بالرجال ودخائلهم ولو انسان عن نفسه هذه الصفات لعددها متفاخراً مباهاً مبالغاً . ولكنك تخرج من انقصيدة معجبا بهذه الصفات فضلاً عن تجسدها في الشاعر او عدم تجسدها وغير عابىء بصدقه او مبالغاته فالحقيقة ان الصياغة الرفيعة التي صيغت بها القصيدة تؤكد صدقها من ناحية وتؤكد بلاغتها النادرة من ناحية اخرى فهي موجزة شديدة التركيز . ولكنها تضم كنزاً ثميناً من القيم الاخلاقية والانسانية والاجتماعية الرفيعة . واذا كان الشاعر قد بدأ بالشجاعة والتسليم للقدر فقد اعطانا المفاتيح الاساسية للشخصية السليمة . قوة القلب وقوة العقل . هذه قصيدة شاعر بدوى اسمه كعب بن سعد الغنوي ولكنها تقف بما تحفظه في ابياتها من كنوز مع روائع الشعر في كل العصور .

شاعر يرثى نفسه

مالك بن الريب التميمي

بجنب الفضي أزجى القلاص النواجيا
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
مزار ولكن الغضى ليس دانييا
وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
أراني عن أرض الاعادي تصايا
بذي الطيسن فالتفت ورثيا
تقنعت منها ، أن الام ، ردائيا
جزى الله عمرا خير ما كان جازيا
وان قل مالي طالبا ما ورثيا
سفارك هذا تاركى لا أبا لييا
لقد كنت عن بابى خراسان نائيا
اليها وان منيتمنى الامانيا
بنى بأعلى الرقمتين وماليا
يخبرن — أنى هالك — من ورثيا
على شفيق ناصح لو نهائيا
بأمرى الا يقصروا من وثافيا
ودر لجاجاتي ودر انتهائيا
سوى السيف والرمح الردينى باكيا
الى الماء لم يترك له الماء ساكيا
عزيز عليهن العشيمة مايبيا
يسوون لحدى حيث حم فضائيا
وخل بها جسمى وحانت وفائيا
يقربعيني أن سهيل بداليا
برابية . . انى مقيم لباليا
ولا تعجلانى قد تبين ثانيا
لى السدر والاكفان عند فنائيا
وردا على عيني فضل ردائيا
من الارض ذات العرض ان توسعاليا
فقد كنت قبل اليوم صعبا قيا
سريعا الى الهيجا الى من دعائيا
وعن شتمى ابن العم والجار واثيا
ويوما ترانى والعقاق ركابيا
تخرق أطراف الرماح ثيابيا
بها الغر والببيض الحسان الروانبا

الا ليت شمعى هل ابين لبلة
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
لقد كان في أهل الغضى لودنا العضى
الم ترنى بعث الضلالة بالهدى
وأصبحت في أرض الاعادي بعيد ما
دعائى الهوى من أهل أود وصحبى
اجبت الهوى لما دعائى بزفرة
أقول وقد حالت قرى الكرد دوننا
ان الله يرجعنى من الغزو لا ارى
تقول ابنتى لما رات طول رحلتى
لعمري ، لئن غالت خراسان هامتى
فان انج من بابى خراسان لا اعد
فله درى ، يوم اترك دلائعا
ودر الظباء السانحات عشية
ودر كبرى الذين كلامها
ودر الرجال الشاهدين تفتكى
ودر الهوى من حيث يدعو صاحبه
تذكرت من ييكى على فلم اجد
وأشقر محبوبك يجر لجامه
ولكن باكتاف السمينة نسوة
صريع على أيدي الرجال بقفرة
ولما تراءت عند مرو منيتنى
أقولى لأصحابى ارفعونى فانه
فياصحبى رحلى دنا الموت فائزلا
أقيما على اليوم او بعض ليلة
وقوما اذا ما استل روحى فهيئا
وخطا باطراف الاسنة مضجعى
ولا تحسد انى بارك الله فيكما
خذائى فجرانى بىردى انيكما
وقد كنت عطافا اذا الخيل ادبرت
وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى
فطورا ترانى فى ظلال وعممة
ويوما ترانى فى رحي مستديرة
وقوما على بر السمينة اسمعا

تهيل على الريح فيها السوايف
تقطع أوصالى وتبلى عظاميا
ولن يعدم المراث منى الموائيا
وأين مكان البعد الا مكانيا
إذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويا
لغيرى وكان المال بالامس مائيا
رحى المثل او أمست بفلج كما هيا
بها بقرا حم العيون سواجيا
بركبانها تعلو المتان الديافيا
وبولان عاجوا المبيقات النواجيا
كما كنت لو عالوا بنعيك باكيا
على الرمس أسقيت السحاب الغوايا
ترابا كسحق المربائى هابيا
قراراتها منى العظام البواليا
بنى مازن والريب ان لا تلاتيا
ستغلق أكبادا وتبكي بواكيا
بعلياء يثنى دونها الطرف وأيا
يد الدهر ، معروفا بأن لا تدانيا
به من عيون المؤنسات مراعييا
بكين وفدين الطبيب المداويا
ذميا ولاودعت بالرمل قاليا
وباكية اخرى تهيج البواكيا

بأنكم خليت منى بقفرة
ولا تنسيا عهدى خليلى بعد ما
غداة غد بالهف نفسى على غد
يقولون لا تبعد وهم يذمنونى
ولن يعدم الوالون شيئا يصيبهم
وأصبح مالى من طريف وتالد
فياليت شعرى هل تغيرت الرحي
إذا الحى حلوها جميعا وانزلوا
وهل أترك العيس العبالى بالضحي
إذا عصب الركبان بين عنيزة
فياليت شعرى هل بكت أم مالك
إذا مت فاعتادى القبور فسلمى
على جدث قد جرت الريح فوقه
رهينة أحجار وترب تضمنت
فيا صاحبي ، أما عرضت فبلغن
وعطل قلوصى فى الركاب فانها
وأبصرت نار المازنيات موهنا
بعيد الدار ثاوا بقفرة
أقلب طرفى حول رحلى فلا أرى
وبالرمال منا نسوة لو شهدننى
وما كان عهد الرمل عندى وأهله
فمنهن أمى وابنتاهما وخالتى



شاعر هذه القصيدة الرائعة هو مالك بن الريب التميمى من شعراء
الاسلام فى بداية العهد الأموى . وأخباره القليلة والمتناثرة تؤكد انه كان
شجاعا فاتكا وقاطع طريق على نهج صعلالك ذلك الزمان وهو يتحدث فى
شعره عن شجاعته ومواقفه بل يعترف صراحة فى احاديثه انه قاطع طريق
وكان له رفقة من أصحابه يسومون الناس شرا فطلبهم مروان بن الحكم
وهو عامل على المدينة فهربوا وكتب الى الحارث بن حاطب الجهمى وهو
عامله على بنى عمر بن حنظلة يطلبهم فهربوا منه ولكن الحارث استطاع ان
يقبض على مالك بن الريب وأصحابه وبينما يسوقهم جند الحارث استطاع
مالك لخفة حركته وسرعته أن يفلت منهم ويقتلهم ويخلص رفاقه ثم هربوا
الى البحرين ثم الى فارس وكان سعيد بن عثمان بن عفان واليا فى ذلك
الوقت على خراسان وقد بلغه ما يشيعه مالك بن الريب وأصحابه من الفزع
والرعب فى قلوب الناس فلقى مالك ورآه من أجمل الناس وجها وأحسنهم
ثيابا فأعجب سعيدا فقال له : مالك ويحك تنفس نفسك بقطع الطريق وما
يدعوك الى ما يبلغنى عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل قال
يدعونى اليه العجز عن المعالى ومساواة ذوى المروءات ومكافاة الاخوان
قال فان انا أغنيك واستصحبك ، أتكف عما تفعل ؟ قال أى والله أيها

الامر اكف كفا لم يكف احد احسن منه فاستصحبه واجرى له خمسمائة درهم في كل شهر . ومن الواضح ان مالك بن الريب بالهيئة واللسان الذين كان عليهما لا يجعلان منه مجرد قاطع طريق أو لص وإنما هو فارس شجاع يرى ان ما هو متاح له من الاعمال لا يكافئ طموحه الى المعالي فرأى في قطع الطريق نوعا من الصراع الفردى ضد عالم لا يهتم منه الا أن يجد فيه حظا موفورا من الكبرياء وعلو الشأن ويبدو أنه كان يشعر بأن هذا العمل يخالف سنة المجتمع الذي نشأ فيه بل ويتنافى مع الدين الذي ارتضاه والذي كان الايمان به واضحا في شعره ومن هنا فانه قد انتهز الفرصة التي عرضت عليه لظهور شجاعة حقيقية في ميدان الجهاد من شأنها أن تكسبه المعالي التي كان يتوق اليها وقد ارتاح لهذا الاختيار لانه يلائم روحه ومزاجه فهو اذن فارس ضل طريقة ثم اهتدى الى هذه الطريق فبادر الى انتهاجه وكتب الادب والاغاني خاصة تلمس في حياة مالك من الاحداث والقصص الغرامية التي تناسب المجتمع الذي كان قائما في العصر الذي وضع فيه كتاب الاغاني فهم يقولون ان سبب رحيل مالك بن الريب الى فارس حيث تلقى سعيد بن عثمان بن عفان هو الخجل من الهزيمة في الحب امام توبة بة الحمير فيرون أن مالك قد مر بليلى الاخيلية فجلس اليها يحادثها طويلا وأنشدها فأقبلت عليه وأعجبت به حتى طمع في وصلها ، ثم اذا هو بفتى قد جاء اليها كأنه نصل سيف فجلس اليها فأعرضت عن مالك وتهافتت به وأقبلت على صاحبها مليا من نهارها فغاضه ذلك من فعلها وأقبل على الرجل فقال من انت قال توبة بن الحمير فقال هل لك في المصارعة قال وما دعاك الى ذلك وانت ضيفنا وجارنا قال : لا بد منه فظن أن ذلك لخوفه منه فازداد لجاجا فقام توبة نصرعه فخلج وقال لا أقيم في بلد العرب أبدا ويبدو أن القصة مفتعلة ومصنوعة لتسلية المجتمع العباسى . وحين هم مالك بن الريب بالذهاب مع سعيد ابن عثمان بن عفان تعلقت ابنته بثوبه وبكت وقالت له أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى فبكى وأنشأ يقول :

بدخيل الهموم قلبها كئيبا
من لوعة الفراق غروبا
ن به أويسد عن فيه ندوبا
ويلاقي في غير أهل شعوبا
طالما حز دمعك الثلوبا
ريب ما تحذرين حتى أووبا
بعزيز عليه فادعى المحييا
أو ترين في رحلتى تعذيبا
أو كنت منك قريبا
ومقيما على الفراش أصيبا
لا أبالي اذا اعتزمت النحيبا
علاوة انجب بها مركوبا

ولقد قلت لأبنتى وهى تسكى
وهى تذرى من الدموع على الخدين
عبرات يكدن يحرقن ماجز
حذر الحنف أن يصيب اباهما
أسكنى قد حزنت بالدمع قلبى
فسلى الله يدفع عنى
ليس شيء يشاؤه ذو المعالى
ودمى أن تقطعى الآن قلبى
انا في قبضة الاله اذا كنت بعيدا
كم رأينا أمرا أتى من بعيد
فدعيتنى من انتحابك انى
حسنبى الله ثم قربت للسير

— ان هذه الأبيات القليلة تؤكد ايمان مالك بن الريب بالله فهو حسبته وكافية وهو في قبضة الاله سواء في قربه من ابنته أو بعده عنها فهو يؤكد لها انه شديد العزيمة لاثنيه الدموع وفعلًا رحل الشاسع مع الأمير سعيد ويبدو أنه قد اتم مهمته العسكرية على أفضل وجه وخلال العودة من المعارك الى ديار أهله فاجأه المرض وربما كان قد أصيب في معركته تلك والرواة يذكرون المرض لا الإصابة فلما أشرف على الموت تخلف معه رجلان من قومه بنى تميم وكان ميلاد هذه القصيدة الشهيرة التي مات بعدها في الموقع الذي ثقلت عليه فيه العلة ويروي الأصفهاني عن أبي عبيدة أن مالك بن الريب لم يقل من قصيدته الا ثلاثة عشر بيتا والباقى منحول ولده عليه الناس :

دأب المؤرخون للادب والادباء على وصف قصيدة مالك بن الريب بأنها في رثاء نفسه أو شاعر يرثى نفسه . ونحن نعرف أن الرثاء هو التفجع على الموتى وذكر مناقبهم أما اذا طالعنا هذه القصيدة نائنا نرى فيها صورة درامية لموقف الشاعر من الموت بعد أن تأكد من حتمية مصيره الفاجع وهي بموضوعها تعبر عن الموقف النموذجي للتجربة الشعرية حيث يواجهه الشاعر المستحيل والمطلق معا فبين ارادة الحياة وحتمية الموت تنصهر كل عواطف الشاعر وأفكاره وتتفجر من هذا الوضع المأساوى صـور القصيدة التي تعبر في صدق نادر عن حب طاغ للحياة ولا يكاد اسم الرثاء يصح وصفا لها وانما هي قصيدة « وداع للحياة » هذا الوداع القاسى ينطوى على الكثير من دلالات الوجود بما فيه من منطق ولا معقولة . بما فيه من سعادة وحزن . وتدور القصيدة بصورها وأفكارها ودموعها ونشيج موسيقاها حول اركان ثلاثة هي صورة الوطن وفجيرة الاهل والاشفاق على النفس من الموت وقف الشاعر وصاحباه عند مرو في خراسان بعد أن ثقلت عليه العلة وأيقن من الموت . المكان يستثير المكان . فكما أن الحاح صورة الموت قد فجرت صورة الحياة فان صورة المكان البعيد الذي وجد نفسه فيه قد أظهرت صورة المكان — الوطن — القريب من النفس والقلب والوجدان — يبدأ الشاعر القصيدة بتصوير وطنه السهينة — حيث يكثر شجر الغضا في هذا الوادى الذي يقترب من اليمن لانه يذكر سهيلا كمرشد اليه وسهيل نجم يطل من ناحية اليمن كما يقولون وعجيب ان يذكر الشاعر وطنه بشجر الغضا — وهو شجر خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى مدة طويلة والشاعر يبدأ بمناجاته لمطابقة دلالة هذا الشجر لمعنيين يترددان في نفس الشاعر هما معنى الحياة والشجر رمز جميل للحياة ومعنى آخر هو دوام انتقاد الحسرة في نفسه على هذا المهلاك المبكر . وما أرق الشاعر وهو يتمنى أن يبيت ليلة بجانب شجر الغضا أى يتمنى ليلة في وطنه يواصل حياته العادية ولبيت الغضى قد ساير الركب قليلا حتى لا تنقطع عنه صورة الوطن فقد كان شيئا محببا الى نفسه أن يزور هذا الوادى الطيب لو كان قريبا منه ولكنه ليس بالقرب الان ليزار . وبعد أن تلمع صورة الوطن في ذاكرة تجاهد لتعرض أمام الشاعر آخر مشاهد الحياة

يقسو على نفسه باللوم والتقريع لانه تبع سعيد بن عثمان بن عفان في هذه الرحلة التي أودت بحياته وغربته عن دياره لقد بدد ما لديه بعد أن ضل ضللا شديدا وباع الهدى وأصبح مقاتلا في هذا الجيش . والشاعر لا يحدثنا عن هذه الموقعة التي كان فيها ربما لانه يرى أن ما يواجهه أخطر من أن ينشغل بغيره . ويترك ذاكرته تنساق وراء الرجاء والتمنى وخيالات الأوهام التي يدرك هو أنها غير مجدية وكأنه يحاول التكفير عن ذنبه فيؤكد أنه لو عاد إلى أهله من هذا السفر فسوف لا يعود إلى ذلك مرة أخرى . وبين مشاهد الوطن وتفزع النفس والعزم والتمنى تلوح صورة ابنته التي تقول له ان سفرك هذا يتركني بلا أب يرعاني . وكان هذا الصوت هو الذي يغذى في نفسه الاحساس بالذنب فيعزم على عدم العودة إلى خراسان مرة أخرى — وكأنه يهجر نفسه ما كان أبعدهني عن بابي خراسان فما الذي أتى بي إلى هنا . وكما تتناثر صورة الوطن في القصيدة كذلك تتناثر صورة الأهل . وهو يحدد أهله بأبيه وأمه وابنتيه وزوجته هؤلاء هم كل أسرته التي يحن إليها ويكاد يجن شوقا إليها . وهو يدعو لنفسه هؤلاء وقومه ونساء قومه ومشاعر الحب التي يدخرها لهم يدعو لكل ذلك هؤلاء بالخير — وهم يثيرون في نفسه بقوة صورة نفسه الوحيدة المغترية وكما يطرح النقيض نقيضه في القصيدة كلها فان صورة الجمع تطرح صورة المفرد وصورة الأهل تستدعى صورة الغربة .

تذكرت من يبكي على فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا

— انه يشفق على نفسه اشفاقا رقيقا يتذكر معه صورة الوحشة التي التي هو عليها فليس ثمة من قريب منه يعرف ما هو عليه الاسيف ورمحه وحصانه الاثقل القوى الذي يسعى إلى الماء للشرب وحيدا بعد أن أخذ الموت ساقيه هؤلاء هم رفقتيه الذين يقهرهم بكاءهم عليه عند موته . ولا تفوتنا صورة الاشفاق على الجواد أيضا حيث يشير إليه بأنه لم يترك له الموت سائيا . وكان الشاعر قد نبه إلى أن هذه الأشياء التي ينتظر منها الاشفاق عليه لا تحس ولا تعقل فيعود ليشير إلى أن نسوة السجينة يعزا عليهن ما هو فيه — ويرسم الشاعر بعد ذلك بالحوار الدرامي مشهد الترقب المرير للموت وهو يطلب من أصحابه أن يرفعوه قليلا ليمتد عينيه بمشهد سهيل هذا النجم الذي يطلع من ناحية وطنه وأهله ويطلب إليه الإقامة معه قليلا فقد تبين أن الأمر جد لاهزل فيه وأن الموت لا محالة نازل به وهو يوصيهما بأن يوسعا له في القبر وتثير هذه المشاعر في نفسه حيث يبدو عاجزا سهل القيادة لا حول ولا قوة ولا ارادة صورة أخرى كما قلنا — صورة الرجل القوى الذي كان صعب القيادة صبورا على نده في الحرب . هنا يذكر شجاعته وسرعته إلى ميدان القتال لنجدة من دماها وبينما كان قويا على مدوه كان هينا لينا مع أهله وجيرانه .

وقد كنت صابرا على القرن في الوغى وعن شتمى ابن العلاء والجار وانيا يتراخى في الاسماء إلى المقربين ويسرع في الاذى للأعداء .

تمتد القصيدة لتنسج بالدموع والندم مشاعر الاشفاق على النفس .
هذا الاشفاق الذى يلتمس المشاركة والاحساس بان من تركهم خلفه سوف يعرفون خسارتهم فيه وهو واثق من مشاعر أهله تجاهه هذه المشاعر التى أنبتها وغذاها هو بأفعاله معهم فهو يوصى صاحبيه بأن يذهب الى السمينة ويعلننا نعيه على الملأ وإشارته الى النساء الجيلات تعكس ولعه بالجمال وأنه كان عاشقا للنساء فقد ورد ذكر هؤلاء الحسان مرارا فى القصيدة :

وقوما على بثر السمينة اسمعا بها الغر والببيض الحسان الروائيا
بأنكما خلقتما بقررة تهيل على الريح فيها السوافيا

يود الشاعر من كل قلبه وهو يموت ان يطمن ان مشاعر الحب والحنان تغمر قلوب أهله وعشيرته ومعجباته من النساء حزنا على وفاته فى الغربة وهو يتوسل بهذه الصور الاليمة للطريقة التى مات بها . ثم يستطرد الشاعر بعد ذلك فى هذا الاشفاق على النفس فنجده يرق ويصفو ويهنو الى المستحيل الحياة — وتمتد عباراته فى صيغة بالغة البساطة والعمق والصدق .

يقولون لاتبعدهم يدفنونى وأين مكان البعد الا مكانيا

واصبح مالى من طريف وتالد لغيرى ، وكان المال بالامس مالى

أنه يتفجع على هذا المال الذى سوف يؤول لغيره وقد كان له من قبل ثم يعرض لصور الحياة فى قومه وكأنه يودع فيها هذه السعادة والراحة والطمأنينة والحب وهو يولى عن الدنيا ويتشبث مرة أخرى بهذا المعنى الذى يردده طوال القصيدة وهو الاطمئنان الى مشاعر الحب عند أهله وهل يضرهم له ما يستحقه فارس مثله من تقدير عظيم واعتزاز جدير بمكانته — هل تتغير شخصية الشاعر الشجاع فيفقد الثقة فى مكانته فى قلوب قومه فهو يطلبها دائما فى القصيدة . أم أنه يلتمس فى هذه المشاعر لونا من الحياة تكون عوضا عن الحياة الحقيقية التى يودعها الآن — أغلب الظن أن الشاعر يبحث وهو يرى فناء الحياة عن لون من الخلود . لون من البقاء نوع من الوجود فى الخلف الباقي من أهله وعشيرته والمعجبات به . هل هو تثبث بالحياة حتى بعد فناء الحياة ونوع من التعلل بالاوهام .

فياليت شعرى . هل بكت ام مالك كما كنت لو حالوا بنعيك باكيا
إذا مت فاعتادى القبور فسلمى على الرمس أسقيت السحاب الغواديا

يعود الشاعر الى احضان أمه فيوصيها بأن تذهب الى القبور تلتمس فيها ايناس الوحشة التى خلقها موته . والشاعر يعطى لعقله أحيانا فرصة للسيطرة على مشاعره حتى يصدع بالأمر الذى ليس منه بد بالحقيقة ساطعة والاوهام باطلة .

فيا صاحبي اما عرضت فبلغن بنى مازن والريب ان لا تلاقيا

هذه هى الحقيقة وما سواها فهو باطل لا جدوى من التشبث به وما
اجمل ختام القصيدة حيث يجمع الامل والوطن والزمان الذى يضم الاثنين
فى زفرة تجمع بين الحسرة والتمنى والتلظى بهذا الفراق الاخير .

وما كان عهد الرمسل عندي وأهله زميما ولا ودعت بالرمل قاليا

ينطوى البيت على الندم والحب العظيم لكل شىء فى وطنه انها نهاية
توشك أن تكون عزاء فى نفس الوقت والقصيدة خالية من اللفظ الغريب
والتركيب المتكلف والصورة المعقدة فهى صورة خالدة لمأساة الانسان —
فى مواجهة الموت وهو انسان محب للحياة ولكل ما فيها وهو يضطر
للتسليم بالحقائق الاليمية فى الوجود هذه الحقائق التى يمثل الموت ذروة
اليقين فيها جميعا .

القصيدة الياثية المسماة

« المؤنسة »

لقيس بن الملوح — مجنون ليلى

وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا
بليلي فلهانى وماكنت لا هيا
بذات الغضى تزجى المطى النواجيا
بدا فى سواد الليل فردا يمانيا
بعليا تسامى ضوءها فبداليا
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
إذا جئتكم بالليل لم ادر ماهيا
خليل إذا أنزفت دمعى بكى ليا
ولا أنشد الأشعار الا تدويا
يظن أن كل الظن أن لا تلتقيا
وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
نرد علينا بالعشى المواشيا
وأعلاق ليلي فى مؤادى كما هيا
تواشوا بنا حتى أهل مكانيا
بهن النوى حيث احتلن المطايا
ولا توبة حتى احتضنت السواريا
لتشبه ليلي ثم عرضنها ليا
قضى الله فى ليلي ولا ما قضى ليا
فهلا بشيء غير ليلي ابتلائيا
لليلي إذا ما الصيف القى المراسيا
فما للنوى ترمى بليلي المراسيا
ودارى بأعلى حزموت اهتدى ليا
من الحظ فى تصريح ليلي حباليا
بى النقض والابرار حتى علانيا
يكون كفافا لاعلى ولا ليا
ولا الصبح الاهيجا ذكرها ليا
سهيل لأهل الشام الا بداليا
من الناس الا بل دمعى ردائيا
من الليل الابت للريح حائيا
على فلن تحموا على القوافيا
فهذا لها عندى فما عندها ليا
وبالشوق منى والغرام قضى ليا

تذكرت ليلي والسنين الخواليها
ويوم كظل الترمح قصرت ظله
بثمدين لاحت نار ليلي وصحبتي
فقال بصير القوم المحت كوكبا
فقلت له : بل نار ليلي توقدت
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى
فياليل كم من حاجة لى مهمة
خليلى ان لا تبكيانى التمس
فما أشرف الايقاع الا صباية
وقد يجمع الله الشيتتين بعد ما
لحى الله اقواما يقولون اننا
وعهدى بليلي وهى ذات مؤصد
فشب بنو ليلي وشب بنو ابنها
إذا ما جلسنا مجلسا نستلذه
سقى الله جارا لليلي تباعدت
ولم ينسنى ليلي افتقار ولا غنى
ولا نسوة صبايين كبداء جلعدا
خليلى لا والله لا أمك الذى
قضاهما لغيرى وابتلائى بحبها
وخبرتمانى أن تيماء منزل
فهذى شهور الصيف عنانقذ انتقضت
فلو أن واثى باليمامة داره
وماذالهم لأحسن الله حالهم
وقد كنت أعلو حب ليلي فلم يزل
فيارب سوى الحب بينى وبينها
فما طلع النجم الذى يهتدى به
ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا
ولا سميت عندى لها من سمية
ولا هبت الريح الجنوب لأرضها
فان تمنعوا ليلي وتحموا بلادها
فأشهد عند الله أنى احبها
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا

أشأب فویدی وأستهم فؤادیا
وقد عشت دهرأ لا أعد اللبألیأ
أحدث عنك النفس باللیل خالیأ
بوجهی وأن كان المصلی وراثیأ
وعظم الجوی أعیأ الطیب المدویأ
أو أشبهه أو كان منه مدانیأ
فمن لی بلیلی أو فمن ذا لها بیأ

وأن الذی أملت یا أم مالك
أعد اللیالی لیلة بعد لیلة
وأخرج من بین البیوت لعلنی
أرانی إذا صلیت یمت نحوها
وما بی أشرأك ولكن حبها
أحب من الأسماء ما وافق اسمها
خلیلی لیلی أكبر الحاج والمنی

لعمری لقد أبکیتنی یا حمأمة العقیق وأبکیت العیون البواکیأ

أری حاجتی تشری ولا تشنرلیأ
سلوت ولا یخفی علی الناس ما بیأ
أشد علی رغم الاعادی تصافیأ
خلیلین الأیرجوان تلافیأ
بوصلك أو أن تعرض فی المنی لیأ
یروم نسلوا قلت أنى لما بیأ
فایاك عنی لا یكن بك ما بیأ
فشان المنایا القاضیات وشانیا
بخیر وجلت غمرة عن فؤادیأ
وأنت التی أن شئت أنعمت بالیا
یری نضوما أبقیة الأ رشی لیأ
ومتخذ ذنبأ لها أن ترانیأ
أصانع رحلی أن یمیل حیالیأ
شمالأ ینازعنی الهوی عن شمالیا
لعل خیالأ منك یلقى خیالیأ
وأنی لا ألقى لها الدهر راقیأ
كنأ لمطایانا بذكرأك هادیأ
لها وهج مستضرم فی فؤادیأ
علینأ فقد أمس هو أنا یمانیا
وحب الینأ بطن نعمان وأدیأ
علی الهوی لما تغنیتما لیأ
أبالی دموع النعین لو كنت خالیأ
بلجنیکما ثم أسجعا علانیأ
لأاقأ بأطلال الغضی ماتبعانیأ
وما للصبأ من بعد شیب علانیأ
الی من تشیها أو بمن جئت وأشیأ
فما ظعن الحب الذی فی فؤادیأ
غزنی بعینیهأ کما زنتها لیأ
فانی بلیلی قد لقیة الدواهیأ
وأن كنت من لیلی علی الیأس طویأ
لی النعش والأکنان وأستغفر لیأ

خلیلی ما أرجو من العیش بعدما
وتجرم لیلی ثم تزعم أننی
فلم أر مثلینا خلیلی صبابة
خلیلان لا نرجو اللقاء ولا نری
وأنی لأستحییك أن تعرض المنی
یقول أناس عل مجنون عامر
بی الیأس أو داء الهیام أصابنی
إذا ما استطل الدهر یا أم مالك
إذا أکتحلت عینی بعینك لم تزل
فأنت التی أن شئت أشقیة عیشتی
وأنت التی ما من صدیق ولا عدا
أضروبة لیلی علی أن أزورها
إذا سرت فی الارض الفضاء رأیتنی
یمانیا إذا كانت یمانیا وأن تكن
وأنی لأستغشی وما بی نعسة
هی السحر إلا أن للسحر رقیة
إذا نحن أدلجنا وأنت أمانیا
ذکت نار شوقی فی فؤادی فأصبحت
الأ ایها الركب الیمانون عرجوا
أسألکم هل سال نعمان بعدنا
الأ یاحمأی بطن نعمان هجتما
وأبکیتما وسط صحبی ولم أكن
ویأ ایها القمر یتمان تجاویأ
فان أنتما أستطریتما أو أردتما
الأ لیت شعری ما للیلی وما لیأ
الأ ایها الواشی بلیلی الأ ترى
لئن ظعن الاحباب یا أم مالك
فیارب أذ صیرت لیلی هی المنی
والأ فبعضها الی وأهلها
علی مثل لیلی یقتل المرء نفسه
خلیلی أن ضنوا بالیلی فقربأ

وردت هذه القصيدة في كثير من المصادر منسوبة لامير العشاق
قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة المعروف بمجنون ليلى .
وكان قد احب ابنة عمه . ليلى بنت سعد بن مهدى بن ربيعة . وانشد
فيها شعرا جبيلا عذبا تقبلته الاذواق والنفوس باعجاب شديد فذاع
وشاع بين القبائل حتى عرف امر غرامه بليلى وكلفه الشديدها . وكان
حبه قويا زلزل روحه وأضعف جسده مما دعا اهله الى محاولة خطبة ليلى
له وتزويجه اياها ولكن اباها رفض هذا الزواج عملا بالتقليد المعروف
لدى القبائل في ذلك الحين بحرمان من يشيب بامرأة من الزواج بها دفعا
للظنون واسكاتا لللسنة التي قد يجمع بها الخيال الى تصور ان ما جاء
في التصائد انها هو حقائق واقعة وأن الزواج ليس الا سترا لهذه الحقائق
وتدخل الشفعاء والوجهاء والامراء لعل والد ليلى يرق لهذا العاشق
ويزوج ابنته ولكنه ابى الا العناد ويروى صاحب الاغانى اخبار هذه
المساعي الخائبة لدى هذا الوالد العنيد فيقول ان ابا المجنون وامه ورجال
عشيرته اجتمعوا الى ابي ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحم . وقالوا
له : ان هذا الرجل لهالك . وانك فاجع به اياه واهله فنشدناك الله
والرحم ان تفعل ذلك فوالله ما هي اشرف منه ومالك مثلى مال ابيه وقد
حكمت في المهر وان شئت ان يخلع عليك ماله فعل . فابى وحلف بالله
وبطلاق امها انه لا يزوجه اياها أبدا وقال : افصح نفسي وعشيرتي وآتى
ما لم يأت أحد من العرب واسم ابنتي بميسم الفضيحة فانصرفوا عنه .
وخالفهم لوقتته فزوجها رجلا من قومها وأدخلها اليه فما امسى الا وقد بنى
لها وبلغه الخبر فأيس منها حينئذ وزال عقله جملة فقَالَ الحى لابييه .
أحجج به مكة وأدع الله عز وجل له مرة أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل
الله أن يعافيه مما به ويبغضها اليه . فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء
فحج أبوه فلما صاروا بمنى سمع صائحا في الليل يصيح . يا ليلى فصرخ
صرخة . ظنوا أن نفسه تلفت وسقط مفشيا عليه فلم يزل كذلك حتى أصبح
حائل اللون ذاهلا ثم قال له أبوه : تعلق بأستار الكعبة وأسأل الله أن يعافيك
من حب ليلى فتعلق بأستار الكعبة وقال اللهم زدنى لليلي حبا وبها كلفا
ولا تنسنى ذكرها أبدا فهم حينئذ واختلط فلم يضبط قالوا فكان يهيم في
البرية مع الوحش ولا يأكل الا ما ينبت في البرية من بقل ولا يشرب الا مع
الظباء اذا وردت مناهلها وطال شعر جسده والفته الظباء والوحوش
فكانت لا تنفر منه وجعل يهيم حتى بلغ حدود الشام فاذا ثاب عقله سأل
من يمر به من أحياء العرب عن نجد فيقال له : واين انت من نجد فقد
شارفت الشام . أنت في موضع كذا فيقول فارونى وجهة الطريق
فيرحمونه ويعرضون عليه ان يجهلوه او يكسوه فيأبى فيدلونه على طريق
نجد فيتوجه نحوه . « جن قيس اذن وضاع عقله وهزل جسمه وتناقل
الناس سيرته وشعره وتزوجت ليلى بالرجل الثرى ورد الذى اخبره لها
أبوها . ويسقط المجنون ميتا بين أحجار الشعاب التي كان يفر اليها من
ظلم العادات والتقاليد يستطميها لتبقى قصة حبه وشعره اغنية الاجيال .
عذبة بقدر ما فيها من حزن . ولتصير ليلى واحدة من اخلد المعشوقات في
تاريخ الادب ويظل قيس واحدا من أشهر عشاق العرب الشعراء . ويترك
لنا الشاعر ديوانا يوشك ان يكون تجربة واحدة في الحب والعذاب حب

واحد ومأساة واحدة وعذاب شديد متنوع الصور يبدأ بالفرح العظيم ويتطور الى الجنون لينتهي بالموت المأساوى بين شعاب الصحراء لا يؤنسها الا الوحش الذى كان أرفق به من بعض البشر . ويشك الكثيرون فى سيرة قيس ووجوده اصلا ويتعرض شعره أيضا للاضافة والحذف فالبعض يضيف اليه ما ليس له والبعض الآخر يفسب شعره لغيره . وهذه الاحتمالات التى تحيط بوجود قيس وشعره تثير وتضاعف الجدل حول حياته وتجعل هذه الحياة وهذا الفن مصدر بحث متصل واعجاب نادر بقصة الهوى والعذاب بل وتصير هذه القصة مبعث الهام لاعمال فنية أخرى مثل مسرحية مجنون ليلى لأمير الشعراء احمد شوقي هذا هو الشاعر . . اما القصيدة فلها عالمها الرحيب الذى يصور القصة وابطالها وبيئتها أيضا .

يقول محقق الديوان الاستاذ عبد الستار احمد فراج ان هذه القصيدة اسمها المؤنسة وهى اطول قصيدة انشدها وواظب عليها . قيل أنه كان يحفظها دون اشعاره وأنه كان لا يخلو بنفسه الا وينشدها وفى الخزانة أنها أشهر قصائده اذا تأملنا هذه القصيدة وجدناها تعبر عن تجربة حياة قيس ابن الملوح كلها . فهى قصيدة حياة لا قصيدة تجربة . انها مجموعة من الانهار الموسيقية والصور الشعرية تتدفق حاملة الى القلب والنفس والروح هذا الحزن العميق الذى انبثق من الفقد والحرمان والهوى المستحيل ولأنها قصيدة حياة فهى تبدأ من الطفولة . تبدأ من الذاكرة التى ترحل الى سنوات البراءة والصفاء واللى هو حيث لا يوجد عدال يهون عنه . وكأنه وهو فى غمرة الحرمان من ليلى وفى غمرة حصار التقاليد له يتذكر طفولتهما حيث كانت هذه الطفولة تتيح لهما التمتع بحرية ببعضهما البعض دون رقيب عليهما . وجميل وذو مغزى أيضا ان يبدأ التذكر بليلى فليلى هى جوهر الامال وهى المطلب الاساسى ثم يأتى الزمان الذى يشكل مسرح القصة . ويففز الشاعر بعد ذلك مباشرة الى الزمن الذى يعيش فيه لانه يتألم ويعانى الى حد يصبح معه التذكر ترفا . انه يصور رحلة له مع اصحابه . وها هى الكواكب فى سواد الليل تختلط عليه بنار ليلى . انه لا يرى هذه الكواكب الا نار ليلى . هو لا يرى ما حوله بل ما بداخله فبينما يقول اصحابه انهم يرون كوكبا يقول هو بل هذه نار ليلى . وتتناثر الابيات فى ذاكرة الشاعر فلا يكاد يقيم لها نظاما منطقيا فيتحدث مرة عن نبات الغضى وهو نبات سريع الاحتراق وكأنه وجد فيه معادلا لنفسيا لما بداخله . وان كان هذا البيت لا ينتمى انتهاء اصيلا الى القصيدة ثم يتوجه بالحديث الى ليلى ليخبرها ان كانت لا تدري باهميتها لديه فهو يذهل عن حاجته اذا جاء طالبا لها من تأثير ادمانه التفكير فيها ويطلب من اصدقائه مشاركته فى البكاء والحزن . ويبدو ان الفراق كان يباعد بين ليلى وقيس فى هذه الفترة ولكنه فى الوقت نفسه يمنى نفسه باللقاء المأمول .

وقد يجمع الله الششتيتين بعد ما بظنان كل الظن أن لا تلاقي

وهو ينكر أن يكون هذا الفراق قد دفعه الى السلوان او انه وجد شفاء لهذا الحب . وكان الحب مرض أصيب به ولماذا لا يصوره كمريض وقد اتلف عقله واضعف جسده وتركه هائبا على وجهه لا يدري من أمره شيئا . وكأنه حلم التذكر كامن في ضميره وفي عمق مخيلته فنراه يعود اليه مرة أخرى ليبرهن على أن حبه لليلي حب قديم نشأ مع طفولته وطفولتها وشب معها أيضا . وكان قيس قد بلغه أن الوشاة يتحدثون عنه وعن احتمال نسيانه لليلي فينكر ذلك اشد الانكار . وهو يعلن بتأكيد واصرار أن حب ليلي ثابت في جوانحه لا يمكن أن ينساه . ولا يؤثر في هذا الحب فقر ولا غنى ولا توبة ولا نسوة مغريات يحاولن اغراءه والتقريب اليه بالتزين على طريقة ليلي لعله يخدع فيهن . جاءت هذه القصيدة بعد فترة طويلة من معاناة حبه بعد أن ظهرت الشائعات عن سلوه وبعد أن تزوجت بغيره فنراه منضجرا من هذه القسمة التي لا يقدر على احتمالها فقد قدر له أن يعشقها وقدر لها أن تكون لغيره .

قضاهما لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشيء غير ليلي ابتلانيا

يعود مرة أخرى الى التذكر والتأمل والحديث الطويل عن الوشاة الذين يتعقبون خطواته وهو لا يدري لماذا يحرصون على تصريح حباليهما . ويتأمل الشاعر حاله فيرى أن حب ليلي قد غلبه وقهره حتى نحكم في أمره لقد كان غالبا على حبه مسيطرا على مشاعره ولكن هذا الحب قد تطور حتى غلبه وتحكم فيه انه يرجوا المعدل في الحب . حتى لا يكون مظلوما مغلوبا على أمره .

فيارب سـو الحب بينى وبينها يكون كفافا لا على ولا نيا

ونحن نرى الشاعر يذكر دمشق في قصيدته فاين هو من دمشق لقد كانت قريته في أرض نجد فكيف نراه قريبا من دمشق حيث يقول «ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا . سهيل لاهل الشام الا بداليا » .

أن هذا البيت يوحى بأن فيه خروجاً منطقياً على مكان القصة ولكن القارئ لكتاب الاغانى يرى أن المجنون كان يهيم على وجهه حتى يصل الى اطراف الشام فيسأل عن نجد فيقولون له واين أنت من نجد . ان الشاعر في هذه القصيدة يعطى انطبعا بالغربة فهو يذكر الريح التي تهب نحو أرض الحببية والتي تهيج أحزانه ويخاطب محبوبته محاولاً أن يعطف قلبها عليه . ويدخل الشاعر بعد ذلك في تعبير بليغ عن مدى القداسة التي وصلت اليها الحببية في نفسه . هل هي قداسة حقيقية أم هو ذهول عن نفسه فلا يكاد يدري ماذا يفعل وهل يدرك المجنون ماذا يأتي من الافعال . ولكنه يدفع عن نفسه رغم ذلك تهمة الشرك بالله . انه على وعى اذن بالحدود التي ينبغى أن يقف عندها . ولكنه غير قادر على ذلك .

أراني اذا صليت يهت نحوها بوجهي وان كان المصلى ورائيا
وما بي اشارك ولكن جبهها وعظم الجوى أعيا الطبيب مداويا

تبدأ القصيدة بعد هذه المرحلة التصويرية الباهرة في الانتقال الى
نوع من المناشدة والحوار مع النفس والبكاء الحزين اشفاقا على النفس
مما ألم بها . ويكاد الشاعر أن يدفعنا الى البكاء وهو يكاد يعلن عن فقدان
رغبته في الحياة بعد أن ذهبت ليلي الى غيره . أن الحمايم الفاتحة تهيج
احزانه وهى ليست في حاجة الى من يهيجها .

لعمري لقد ابكىنى يا حمامة العقيق وابكىت العيون البواكيا

ان تعبير العيون البواكيا يؤكدان حزن الشاعر غامر وان البكاء
الذى أثاره نواح الحمايم هويكاء جديد يضاف الى البكاء المتصل القديم .
وتتصاعد الشكوى وينصاعد العذاب وتنتقل القصيدة من العتاب الاليم
الى الشكوى الى الاستعطاف الى تأكيد الولاء حتى أنه ليتجه براحلته الى
حيث تقيم .

يمينا اذا كانت يمينا فان تكن شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا

وما أعذب جمال هذا البيت الذى يصور فيه الشاعر التظاهر
بالنوم لعلها حببته تأتية في الحلم وكأنه قادر على خداع الاحلام ولكنه
الشوق الغلاب المضى وتستمر حملة الشاعر الشعواء على الوشاة
الذى لا يتركونه وشأنه ويؤكد لليلي انه اذا كانت الايام لا تكف عن دفعنا
الى الرحيل الهائم وهو احد العلامات الاساسية والضرورية لحياة
البادية . فان حبه لها ثابت ومقيم .

لئن ظعن الاحباب يا أم مالك فما ظعن الحب الذى فى فؤاديا

ويقتررب الشاعر بعد يأسه القاتم من الموت هذا الشاطئ الاخير لرحلة
المعاناة . وانه شاطئ النهاية المحتومة :

رغم أنه يعتصم بنوع من الوهم وبصيص من الامل ولكنه لا يملك
الا اليأس فى ختام محاولاته .

خليلى أن ضنونا بليلى فقربا لى النعش والاكفان واستغفرا ليا
والقصيدة بهذا تصل الى ختامها مشحونة بالشجن والرحيل والفرح
النادر والامل المستحيل . والقصيدة ليست محكمة البناء ولا تحكمها الوحدة
العضوية ولا النمو المنطقى ولكنها لا تريد ان تقدم تجربة بل حياة كاملة
يحملها الشعر على جناحه . واذا كانت الحياة البشرية قد وجدت ختامها
فى الفناء والعدم فان الشعر قد ظل محلقا فى سماء الخلود .

غزليات الأحوص

رام قلبي السلولو عن أسماء
سخنة في الشتاء باردة الص
كفنائى أنمت فى درع أروى وامتحد
اننى والذي تحجج قريشس
للم بهما وان أبست منها
ولها مريع ببرقة خاخ
قلبت لى ظهر المجن فأمست
وتعزى وما به من عزاء
يف سراج فى الليلة الظلماء
الى من بئر عروة مائى
بيته سالكين نقب كداء
صادرا كالذى وردت بداء
ومصيف بالقصر قصر قباء
قد أطاعت مقالة الاعداء

وانى ليدعونى هوى أم جعفر
وانى لآت البيت ما أن أحبه
تطيب لى الدنيا مرارا وانها
وانى اذا ما جئتكم متهللا
وأغضى على أشياء منكم تسؤنى
وأحبس عنك النفس والنفس صبة
وما زلت من ذكراك حتى كأننى
أبتك ما القى وفى النفس حاجة
هبنى امرأ اما بريئا ظلمته
لك الله انى وأصل ما وصلتنى
وأخذ ما أعطيت عفوا واننى
وجاراتها من ساعة فأجيب
وأكثر هجر البيت وهو حبيب
لتخبث حتى ما تكاد تطيب
بدا منكم وجه على قطوب
وأدعى الى ما سرهم فأجيب
بقربك والمشى اليك قريب
أميم بأفياء الديار سليلب
لها بين جلدى والعظام ديب
وأما مسيئا مذنباً فيتوب
ومثن بما أوليتنى ومثيب
لأزور عما تكرهين عيوب

تالت - وقلت تخرجى وصلى
وأصل اذن بعلى فقلت لها
ثنتان لا أدنو لوصلها
أما الخليل فليست فاجعه
وببطن مكة لا أبوح به
ولو أنها اذ مر موكبها
قلنا لها حييت من شجن
والشوق أقتله برؤيتها
والناس ان حلوا جميعهم شـ
لحالت شـعبك دون شعبيهم
عوجوا كذا نذكر لغانية
ونقل لها فيم الصدود ولم
حبلى امرئ بوصالكم صب
الغدر شئ ليس من ضربى
عرس الخليل وجارة الجنب
والجار أوصانى به ربى
قرشية غلبت على قلبي
يوم الكديد أطاعنى صحبى
ولركبها حييت من ركب
قتل الظما بالبارد العذب
شعبا سلام وانت فى شعب
ولكن قربى منكم حسبى
بعض الحديث مطيكم صحبى
نذنب بل أنت بدأت بالذنب

ان تقبلنى تقبل ونزلكم
او تدبرى تكدر معيشتنا
منا بدار - السهل والرحب
وتصدى مثلثم الشعب

وعينى لبين من ذوى الود تدمع
بهم له لوعات حزن تطلع
اظل لآخرى بعدهما أتوقع
ولا بالذى يأتى من الدهر تقنع
ولا بذوى خلص الصفا ممتنع
لتقطيع وصل خلة حين تقطع
على الايك بين القريتين تفجع
له فنن ذو نضرة يتزعزع
اذا جزعت مثل الذى منه اجزع
صنعت كما أصبحت للشوق أصنع
اطاع له منى فؤاد مروع
سوى أنه يدعو بصوت وتسجع
أصب بعيدا منك قلبا وأوجع
يؤمل من معروفه اليوم مطمع
على بما أعنى به وأمنع
على أهله والجود أبقى وأوسع
فيرثاء دمع العين منك فتهجع
مودع بين راحل ومودع
ومال اليها ود قبلك أجمع
فتبرم حبل الوصول أو تتبرع
من الهائم الصب الذى يتضرع
الى الظامن النائي المحلة ينزع
ولا كل ما حاذرته عنك يدفع
ولا كل راج نفعه المرء ينفع
لظل بسوء القول فى القوم يقنع
لما شاء من أمر السفاهة يسمع
وقد كان فى الانصاة عن ذاك مربع
ولا سوءة من خزية يتقنع

أنفى كل يوم حبة القلب تقزع
أبا الجد أنى مبتلى كل ساعة
إذا ذهبى عنى غواش لعبرة
فلا النفس من تهما مها مستريحة
ولا أنا باللائى نسبت مرزؤ
وأولع بى صرف الزمان وعطفه
وهاج لى الشوق القديم حمامة
مطوقة تدعو هديلا وتحتها
وما شجوها كالشجو منى ولا الذى
فقلت لها لو كنت صادقة الهوى
ولكن كتمت الوجد الا ترنما
وما يستوى باك لشجو وطائر
فلا أنا مما قد بدا منك فاعلمى
ولو أن ما أعنى به كان فى الذى
ولكننى وكلت من كل باخل
وفى البخل عار فاضح ونقيصة
أجذك لا تنسى سعدا وذكرها
طربت فما ينفعك يحزنك الهوى
أبى قلبها الا بعدا وقسوة
فلا هى بالمعروف منك سخرة
ولا هو اما عائب كان قابلا
أفق ايها المرء الذى يهومه
فما كل ما أملت أنه أنت مدرك
ولا كل ذى حرص يزداد حرصه
وكم سائل أمنية لو ينالها
وذى صمم عند العتاب وسمعه
ومن ناطق يبدى التكلم ميه
ومن ساكت حلما على غير ريبة

هذه المختارات من شعر الغزل لواحد من أهم شعراء
العصر الاموى وهو الاحوص يقف مرة الى جوار مدرسة عمر بن
أبى ربيعة بما عرف عنها من غزل صريح وولع بالجمال وتعقبه فى غير
حرج ولا تأثم ومرة أخرى يضعه بعض مؤرخى الادب بالقرب من مدرسة
جميل بن معمر شاعر الغزل العذرى ولكنه بين هؤلاء شاعر لا تغفله

الروايات ولا يهمله التقييم الادبي وقد جعله ابن سلام في الطبقة السادسة من شعراء الاسلام وجاء موقعه في تقييم ابن سلام بعد عبد الله بن قيس الرقيات وجميل بن معمر ونصيب ويقول أبو الفرج الاصفهاني «والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنىء الاخلاق والانفعال اشد تقدما منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعاً وأسهل كلاماً وأصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة الفاظ ليست لواحة منهم » أما نسب الشاعر الكامل فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عاصم بن ثابت ابن أبي الاقلح . . وكان جده عاصم رئيس وفد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى إحدى قبائل العرب فقتل غدرًا وحمله السيل فأخفاه عن عيون المشتركين ولكن يبدو أن الشاعر لم يكن على شبه جده من الصلاح والتقوى بل هو شاعر أقرب الى المجون واللهو وخلع عذار الحياء بل الى الفسق لنفسه وكان لسوء خلقه أثر كبير في نفور الناس من مصاحبته كما تعرض للنفي والجلد على يد سليمان بن عبد الملك وحين ولي الأمر عمر بن عبد العزيز أقصاه عنه وقرب غيره من الشعراء ويبدو أنه كان دهمياً فأشاع ذلك في نفسه نوعاً من الحزن العميق قاده الى التحرر والتحلل والخروج على العرف والدين والاخلاق في عصره وكلمة الاحوص مأخوذة من صفة الاحمرار في العينين .

ويبدو أن هذا الاحمرار قد ضاعف من قبح وجهه فكان غير قادر على اقامة علاقات طبيعية مع ربات الحجال فلم يعرف عنه أنه وفق في علاقة عاطفية ولا أنه كان مرغوباً من النساء شأن عمر بن أبي ربيعة الذي اتسم بالوسامة ورفعته الجاه والطبقة والشهرة بالخطوة عند النساء ولكن الاحوص كان ذا قدم ثابتة في مجال شعره شهد له بذلك الانفاذ من الشعراء في عصره ومنهم الفرزدق الذي يروي صاحب الاغانى أنه قدم المدينة ثم خرج منها فسل عن شعرائها فقال رأيت بها شاعرين وعجبت لهما أحدهما أخضر يسكن خارجاً من بطحان (يريد ابن هرمة) والآخر أحمر كأنه حرة على برودة شعره (يريد الاحوص) .

عاش الاحوص حياة النافر من مجتمعه ولم يجد قبولاً من الخلفاء الا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان . . ويرى محقق ديوانه الأستاذ عادل سليمان جمال أن الاحوص كان مغرماً بسلامة المغنية وأنها هي أيضاً كانت أيضاً مغرمة به فيقول ، أما سلامة القس فهي المغنية التي تعلق بها ، الاحوص تعلقاً شديداً ويبدو أنه أحبها وكلف بها « أما الدكتور طه حسين فيبعد أن يشرح موقف الشاعر الديني ويوافق كما يبدو على الروايات المتعددة التي تصفه بالفسق والفجور يعترف بشاعريته ويستشهد على ذلك بآراء كبار شعراء عصره فيه يقول الدكتور طه حسين في كتابه حديث الاربعة « كان الاحوص غزلاً ولكنه كان مفتناً في ضروب الشعر كلها له الفخر الرائع والمدح البديع والهجاء

المقذع وذلك لانه لم يكن متكلفا ولا محتشما وانما كان يرسل نفسه على سجيته وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد . . كان حلو اللفظ متينة قوى الاسلوب رصينة يبلغ الاجادة اللفظية في غير تكلف ولا مشقة ولم يكن كغيره من العزلين المكين يعنى بالمعنى يستخف بالالفاظ وانما كان حربصا على التجويد في لفظه ومعناه جميعا .

عاش الاحوص بسبب قبح وجهه منحرف النفس وحين نولى يزيد بن عبد الملك دخل عليه الاحوص فقال له يزيد والله لو لم تمت الينا بحرمة ولا توسلت بدالة ولا جددت لنا مدحا غير أنك مقتصر على البينين الذين قلتها فينا لكنت مستوجبا لجزيل الصلة منى حيث تقول :

وانسى لاستحييكم أن يقودنى الى غيركم من سائر الناس مطمع وان اجتدى للنفع غيرك منه وانت امام للرعاية مقنع

وقد مات الاحوص في خلافه يزيد بن عبد الملك كما يرى الاستاذ عادل سليمان بعد حياة من المعاناة والقسوة ولكن الشاعر استطاع أن يضىء هذه الحياة بمصباح شعره الوهاج المتألق . اذا وقفنا أمام هذه الغزليات رأيناها مطابقة لتلك الصفات التى أطلقها عليه النقاد القدامى فهو سهل العبارة واضح المعنى جزل الالفاظ .

تكثر الاسماء في هذه الغزليات فهو يذكر أم جعفر وسلام وأسماء وغيرهن ولكن ذلك لا يخذعنا فنتصور أنه أقام صلات بكل هاته النسوة اللائى ذكرهن فتلك الاسماء الكثيرة التى ذكرها الشعراء الغزلون انما تدل أولا على نطم من هؤلاء الشعراء هم الذين لا يوقفون حبههم على امرأة واحدة وانما هم يتبعون هواهم في تعقب الجمال أينما وجد وتدل ثانيا على أن تقاليد المجتمع البدوى ما كانت لتبيح للشاعر أن يصرح باسم محبوبته فكان يتخذ هذه الاسماء بمثابة ائتمنة لاسم حبيبته الحقيقية .

والغزلية الاولى من هذه الغزليات تقدم صورة من صور الازمات العاطفية التى مر بها الشاعر فحبيبته أسماء قد سمعت كلام الوشاة فيه نهجرته على ما يبدو مما دفعه الى اليأس منها والبحث عن العزاء والسلوان ولكن أنى له بذلك وهى كما وصفها دافئة في الشتاء باردة في الصيف سراج في الليلة الظلماء . . كل هذه الصفات التى تجمع بين الحواس المختلفة تعمق فى المتلقى لشعره صورة جذابة لهذه الحبيبة الهاجرة وهو يقسم على أن يلم ببيتها حتى لو كانت هذه الزيارة مصدرا للآلم ولا جدوى منها . . والقصيدة تؤكد ثلاثة معان أساسية الوصف الخارجى للشخصية المحبوبة والعزم على المضى في الحب مهما كانت العقبات ثم توضيح الشخصية الاجتماعية للحبيبة وطبقتها الراقية التى تنتهى إليها فهى لها مشتى ومصيف أن الشاعر في هذه الابيات الخلية قد بلغ من نفوسنا ما الاعجاب بهذه السهولة والجزالة والدقة في اصابة

المعنى الذى يريد ايصاله لنا . فاذا انتقلنا الى الغزلية الثانية رأيناها يقف موقف الاستعطاف والتوبة وطلب الرضا من أم جعفر ويبدو ان الشاعر كان بعيدا عن الحظوه من النساء فجاء شمره يطفح بهذا الالم وهذا الجفاء الذى يعانىة من حبيباته ويروى الدكتور طه حسين قصة أم جعفر هذه فيقول :

زعموا أنه أى الاحوص أسرف فى ذكر أم جعفر وهى أنصارية عفيفة فلما ضاق بها الأمر أثبت ذات يوم متكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه فقالت له : أقضى نهن الغنم التى اشتريتها منى فأنكر ذلك وألحت وصدقها الناس وأخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها فكشفت عن وجهها وأصر هو على انكاره وقد اجتمع حولهما الناس فلما بالغ فى الانكار قالت أم جعفر صدقت يا عدو الله ، والله ما أعرفك وما تعرفنى ولكنك تذكرنى فى شعرك فتقول قالت لى أم جعفر وقلت لها ويشيع ذلك فى الناس فحجل الاحوص وقارئ الغزلية يوقن من صدق الاحوص فى حبه أو على الأقل فى ولعه بالجمال وقد تكون أم جعفر أخرى هى المقصودة .

تجىء هذه الغزلية حافلة بالاحساس بأن الشاعر غير مرغوب فيه وهو وان كان يرى أن الدنيا تطيب له أحيانا وأحيانا أخرى تخبث فان أزمة الشاعر أنه يميل الى من لا يرغب فيه فما هو يجىء مهتلا فلا يجد الا التقطيب ويبدو ان الاساءة اليه لم تكن فقط مجرد أهماله بل انه كان يغضى على الكثير ويلجأ فى بعض الحالات الى الامتناع عن زيارتها لاثارة اهتمامها ولكن قربه وبعده لم يسفرا عن تحقيق المرام وما هو فى النهاية يعلن أنه لم يملك حججا منطقية لاقناعها فهو يقول لها اما ان أكون مظلوما بسبب هذا الهجر فيحق لها إذن أن تصرف عنه ظلمها أو أنها تعتبره مذنباً فيؤكد لها أنه على استعداد للتوبة ويبدى لها الرضى بما تجود به مهما كان هذا الذى تسمح به أريحيته حتى لو صدر منها بلا قصد . هو راض وسعيد بما يرضيها وهو مقلع عن كل ما يغضبها وما يكون الحب سوى هذا .

أما الغزلية الثالثة فيبدو أنها تجربة عابرة لم تبلغ من نفسه حد التوله والهيام ويبدو أن الشاعر فى هذه الغزلية قد وجد الفرصة سانحة للدفاع عن أخلاقه التى كانت موضع شبهة من الجميع . ولا نكاد نقرأ هذه الغزلية حتى نتعجب للتناقض فيها فهو يتعرض لامرأة يزعم أنه يحبها وهى زوجة لمحب تهمد له سبيل القرب منها فتنصحه بأن يصادق زوجها وإذا به يصرح بأن أخلاقه لا تقبل هذا الغدر بالصديق فهو يرمى ذمام الصداقة والحوار .

ثنتان لا أدنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب

والذى يخرجنا من هذا التناقض هو التوهم بأن الاحوص لم يكن يدري بأن لهذه المرأة زوجا أو أنه اتخذها ذريعة للدفاع عن أخلاقه . والشاعر فى هذه القصيدة بالغ الحذق فى الحوار وفى الكشف عن شخصية

حبيته وفي الحديث عن نفسه وفي ابتداء الصور الشعرية البارعة التي تصور قدرته على الصياغة الفنية لأحاسيسه التي قد تكون عادية ولكن التعبير عنها هو الذي جاء غير عادي وكم هو رائع البيت الذي يقول :

والشوق أقتله برؤيتها قتل الظما البارد العذب
بيت حافل بالتجسيد وقوة التصوير وبراعة التركيب بين الأشياء ليقدّم لنا
أحاسيس العارم بحب هذه المرأة وشوّهة إليها . فإذا جنّا إلى غزليته
الآخرة وجدناها حافلة بهذا الإيقاع العميق الذي يذكرنا بمجنون ليلى
وبقيس بن ذريح وهذه الغزلية تنفرد بخاصية هامة هي أنها تحمل نوعاً
من التوجع الشامل الذي يقتصر على فشل في تجربة الحب بل هي تعبير
عن فشل واضح في تجربة الحياة ذاتها . ويبدو أن الشاعر كان كثير الأراء
فها هو يبدأ قصيدته بالاستفهام التعجبي (أفي كل يوم حبة القلب تترع)
واستخدام لفظ القرع يوحي بأن ما يحدث للشاعر هو نوع من المصائب
الكبرى والشدائد الثقّال فهو ما أن ينعم بذهاب غاشية من غواشي الحياة
حتى يزعه توقع غاشية جديدة فنفسه على خشية دائمة مما يقع لها ومما
سيقع أيضاً ولكن الزمان قد أوقع به فهو ماضٍ في تقطيع
صلاته . أن الأبيات الستة الأولى توحى بالظلال القاتمة التي تسيطر على
مناخ حياة الشاعر وتؤكد أن هذه الحياة تتأرجح بين المصائب لا تحظى
بالراحة ولا بالقناعة . ثم ينتقل إلى الحماية الشهيرة في الشعر العربي
حماية الشعراء المؤنسة التي تظهر في القصائد رفيقة مواسية
لهؤلاء الحزانى الذين لا يجدون تعاطفاً من البشر الذين يحيطون بهم وهذه
الحماية التي تنادي هديلاً كأنها تطلب المستحيل لا تكاد تقترب من حزنها
في شيء من هذا الحزن الثقيل الذي يجثم على صدر الشاعر حتى
أنه حين يحاول المقارنة بينه وبينها يرى نفسه يبكي وبراهها تغنى وما أبعد
المسافة بين البكاء والغناء فهو إذن لا يفتن بمشاركة الحماية له في جزئه .
وهو يصرح لنا أن جزئه هذا من أجل من لا أمل في وصله ولا عطائه .

ولو أن ما أعنى به كان في الذي يؤمل من معروفه اليوم مطمّـع
ولكنني وكلت من كل باخل على بما أعنى به وأمنع

وحبيبة الأحوص في هذه القصيدة ذات اسم جديد هو سعاد . . أن
سعاد في هذه القصيدة مصرة على البعد والقسوة رغم أنه يمنحها وده
أجمع . . وكلمة أجمع هنا جاءت لتأكيد الهوة بين ما يضمّره لها الشاعر
وما تفعله به ولا يجد الشاعر أمامه سوى أن يجرد من نفسه شخصاً آخر
أكثر حزماً ينهره ويزجره عن المضي في هذا السبيل الملائس الذي لا أمل فيه
فهو يؤكد له أنه لن يحظى بكل ما يريد ومن ذا الذي يحظى بكل ما يريد
في هذه الدنيا . فلا أنت قادر على أن تنال كل ما تريد ولا أنت قادر على
دفع كل متحاذر أن يحدث . . ثمة قدرية واضحة تلوح لعيني الشاعر
حتى تهدأ النفس وتستريح . . وهو يفترض أن الرضى لا يتحقق حتى ولو نال
المراد فكم من أمنية تجلب سخط الناس لو تحققت لصاحبها . يلجأ الشاعر
إلى حيلة أخرى لتعزية نفسه عن فشلها في الحب ربما ؟ في الحياة

بكل تأكيد : ان الحكمة الشعرية العربية التقليدية تتوح هذه الغزلية
البالغة الجزالة والرقّة لتعطى للشاعر راحة متوهمة لم تستطع الحياة أن
تمنحها له وهو شاعر سىء الحظ لدى الحسان لم ينفعه معهن شمه
الرقيق ولا ميله العميق واذا كانت قصائده تؤكد أنه لم يكسب رضا النساء
فهى تؤكد أيضا أنه لم يخسر الشعر !!

غزليات

عمر بن أبى ربيعة

— ١ —

وشفت أنفسنا بما تجد
انما العاجز من لا يستبد
وتعمرت ذات يوم تبتعد
عمركن الله أم لا يقتصد
حسن في كل عين من تود
وقديما كان في الناس الحسد
حين تجلوه اقاح أو يرد
حور وفي الجيد غيد
معهمان الصيف أضحي يتعد
تحت ليل حين يفشاه الصرد
ودموى فوق خدى تطرد
شفه الوجد وأبلاه الكمد
ما لمقتول قتلناه قود
فتسمين فقالت أنا هند
صعدة في سابري تطرد
انها نحن وهم شيء أحد
عقدا يا حبذا تلك العقد
ضحكت هند وقالت بعد غد

ليت هذا أنجزتنا ما تعد
واسبتدت مرة واحدة
زعموها سألت جاراتها
أكمها ينعتني تبصرتني
فتضاحكن وقلن لها
حسد حملنه من شأنها
غداة يفتر عن أشنبها
ولها عينان في طرفيهما
طفلة باردة التبيظ اذا
سخنة المشتى لحاف للفتى
ولقد أذكر إذ قلت لها
قلت من أنت فقالت أنا من
نحن أهل الخيف من أهل منى
قلت أهلا انتم بغيتنا
انما خبل قلبى فاحتوى
انما أهلك جيران لنا
حدثوني أنها لى نكثت
كلما قلت متى ميعادنا

— ٣ —

ضقت ذرعا بهجرها

أتحب الاثول أخت الرباب
إذا ما منعت برد الشراب
ضقت ذرعا بهجرها والكتاب
مهجتى مالتلى من متاب
من دعانى ؟ قالت أبو الخطاب
بين خمس كواعب أتراب
يرجون حسن الثواب
في أدبم الخدين ماء الشباب
صورها في جانب الحراب

قال لى صاحبي ليعلم ما بى
قلت وجدى بها كوجدك بالماء
من رسولى الى الثريا بانسى
أزهقت أم نؤمل اذ دعتها
حين قالت لها أجيبى فقالت
أبرزها مثل المهة تهادى
فأجابت عند الدعاء كمالى رجال
وهى مكنونة تحير منها
دمية عند راهب ذى اجتهدا

واضححات الخدود والاقرب
عدد النجم والحصى والتراب
حسن لون يرف كالزوياب
طلعت من دجنة وسحاب
تتهادى في مشيها كالحباب
سخابا واهاله من سخاب
فسلوها ماذا احل اغتصابى

وتكنفنها كواعب بيض
ثم قالوا تحبها قلت بهرا
حين شب القتول والجيد منها
اذكرتنى من بهجة الشمس لما
فارجحت في حسن خلق عميم
قلدوها من القرنفل والدر
غصبتنى مجاجة المسك نفسى

ياليتنى افتدى

في مستهام رماه الشوق بالذكر
مفتانة الدل ريا الخلق كالقمر
مثل المهابة تراعى ناعم الزهر
حسانة الجيد واللبات والشعر
لاثر الزر فوق الثوب في البشر
وانكرت بى انتقاص السمع والبصر
ببعض لحمى وبعض النقص عمري
خوف المقاتل وخوف الكاشح الاثر
واصبر وكن كصريع قام من سكر
اتى به جبهها في فطنة الفكر
ككيف اصبر عن سمى وعن بصرى
اذا لقضيت من اوطارها وطرى
ونظرة عرضت كانت من القدر
وانظر فلا بأس بالتسليم والنظر
وتربها بتربانا على خطر
في نحرها: دين هذا القلب من عمر

ياصاحبى اتلا اللوم واحتسبا
بيضة كمهابة الرمل آنسة
سيفانه فنق جم مرافقها
مكورة الساق غرثان موشحها
لو دب ذر رويدا فوق قرقرها
تالت قريبة لما طال بى سقى
يا ليتنى افتدى ما قد تهيم به
قد يعلق القلب حبا ثم يتركه
دع حبها وناسى الحب تلق به
فقلت قولا مصيبا غير ذى خط
سمى وطرفى حليفها على جسد
لو تابعتنى على أن لا أكلها
دل الفؤاد عليها بعض نسوتها
وقول بكر الم تلمن لنسألهم
لا أنس موقنها وهنا وموتفنا
وقولها ودموع العين تسبقها



شاعر هذه الغزليات هو عمر بن أبى ربيعة أشهر شعراء الغزل
في الأدب العربى ويكنى «أبا الخطاب» ولد كما يقول صاحب الأغاني
ليلة مات الخليفة عمر بن الخطاب وقيل في التعليق على ذلك أى حق رفع
وأى باطل وضع . لما عرف عن الشاعر بعد ذلك من ولع شديد بالجمال
وتشبيب صريح بالنساء . عاش عمر حياة مترفة لاهية لا هم له الا
مطاردة أجمل نساء عصره واستخدام شعره وسيلة لاصطيادهن والتحدث
اليهن وجاء شعره تعبيرا عميقا عن حياة الطبقة الاورستقراطية
الحجازية في ذلك العصر كما كان هذا الشعر جديدا كل الجسدة
في أسلوبه وفى معانيه والفاظه ولعله أقرب الشعراء العرب القدامى
من ذوق العصر الحديث ببساطته الشديدة وجراته وانطاته عواطف
المرأة بمكنون أسرارها . وقد نال الشاعر اعتراف كبار الشعراء
قال عنه الفرزدق بعد أن سمع نسيه هذا الذى كانت الشعراء تطلبه

فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه وقال جرير « مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر وقال صاحب الأغاني نقلا عن الزبير بن بكار أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبي ربيعة شاعرا من أهل دهره في النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والنحلى بمودته ، وروى صاحب الأغاني قال حدثنا الزبير بن بكار عن عمه مصعب أنه قال :

« راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الربع وانطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال . وإثبات الحجة وترجيح الشك في موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج العلل وعطف المساءة على العذال وأحسن التفجع وبخل المنازل واختصر الخبر وصدق الصفاء أن قدح أورى وأن اعتذر أبرأ وأن تشكى أشجى وأقدم عن خبرة ولم يعتذر بغرة وأسر النوم وغم الطير وأخذ السير وحرر ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأربى وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطرفه وأبرم نعت الرسل وحذر وأعلن وأسر . وبطن وأظهر . والح وأسف وأذل وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه وأذل صعبه . وقنع بالرجاء من الوفاء . وأعلى ثأنته واستبكى مآذله ونفض النوم وأعلن رهمن منى وأهدر قتلاه وكان بعد هذا كله فصيحاً »

أن هذا التقييم النقدي القديم لشعر عمر بن أبي ربيعة يعكس تقديراً بالغا لهذا الشعر ولم يحظ شاعر قبله ولا بعده بقدر كبير من الاتفاق على قيمته الشعرية كما حظى عمر بن أبي ربيعة وكان الدكتور طه حسين يرى أن الشعر الغزلى في العصر الأموي أرفع مكانة وأعلى قيمة من الناحية الفنية وصدق الشعور من الشعر العربي في كل عصوره وكان الدكتور طه حسين يضع عمر بن أبي ربيعة على رأس شعراء الغزل في العصر الأموي وبهذا يكون عمر بن أبي ربيعة أعظم شعراء الغزل العربي في نظر الدكتور طه حسين كما يقول في كتابه حديث الأربعة .

« نعم . هو زعيم الغزلين من أهل الحضرة في عصره لا يختلف في ذلك الناس وإنه تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزليين . أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضرة بازاء جميل من أهل البادية فكان عمر كان زعيم الغزل الحضري حينما كان جميل زعيم الغزل البدوي ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جدا . فلم يبق سبيل إلى المقارنة بينه وبين عمر الذي حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره . والذي استقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن رأيا صحيحا أو مقاربا . ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة فليس من شك في أن عمر بن أبي ربيعة كان مقدما عليه عند أهل عصره ويجب أن يظل مقدما عليه من الوجهة الفنية . لانا لا نعرف شاعرا عربيا أمويا أفتن

في الغزل افتنان عمر . فعمر اذن زعيم الغزلين الامويين جميعا لا نستثنى منهم احدا ولا نفرق فيهم بين اهل البادية وأهل الحاضرة . بل نحن نذهب الى ابعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزلين في الادب العربى كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى الى الآن » وهذه الحقيقة التى يعلنها الدكتور طه حسين تقترب من المجازفة العملية وتتفق مع الآراء التى تلجأ الى التعميم وهى سمة بعض النقاد الاتهامى . ولا شك أن الاعجاب والتعاطف هو الذى يقود مثل هذه الأحكام المطلقة ولا يملك المعارضون لموقف الدكتور طه حسين كثيرا من الحجج لدحض رأيه لأن عمر بن أبى ربيعة فى الواقع قد تجاوز بعذوبة شعره وصحة فهمه للشعر والمرأة على السواء كل شعراء عصره بل لقد استطاع أن يتجارب مع كل العصور وهو أقرب الى ذوقنا وسلوكنا من كل الشعراء الآخرين . وقد صور شعر عمر كما تصور هذه الغزليات التى اخترناها عددا هائلا من العلاقات الغرامية التى تبدو من خلال صدته الفنى حقيقية على المستوى الواقعى . فأسماء الحبيبات فى شعره يتجاوز الأرقام القياسية لشعراء عصره والعصر الذى سبقه فهو يحب كل جميلة وهو يبدو صادقا فى حبه ولقد أثار هذا الموقف كثيرا من الجدل حول طبيعة عاطفة هذا الشاعر الذى ينتقل كالفراشة من زهرة نضرة الى زهرة أخرى أشد نضارة دون أن يرى فى ذلك غضاضة أو نوما من التشكيك فى وفائه كان اخلاص عمر الحقيقى للجمال أينما وجده . كان الحب المطلق قضيته المطلقة ولم تكن امرأة واحدة بتأدية على صرعه من هذا الهوى العنيف الجارف لكل امرأة جميلة أخرى : ولقد اتهم عمر بالرجسية فى غرام ذاته والولع بنفسه حتى ليظن قارئ شعره أنه كثيرا ما كان يتغزل فى نفسه بدل التغزل فى المرأة ولكن الدكتور طه حسين يرى فى هذا الولع بالذات تجاوبا مع تهافت النساء عليه وولعهن به بقول الدكتور طه حسين :

« لم يكن عمر مغرورا ولا تباها . كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه وانما كان صادقا بالحب قويا أيضا ستقول . فكيف يلائم ذلك ما زعمت من أنه كان عذريا ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتابع النساء جميعا بحبه لا يكاد يدع امرأة الا ليعرض لأخرى وربما اشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير امرأة ؟ كان هذا كله حقا وكان عمر بن أبى ربيعة مع ذلك صادقا بالحب قويا أيضا . ذلك لأنه لم يكن عذريا . لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه وانما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير كما قلت آنفا لم يكن حسه يطبع قلبه فبرى الجمال فى عشيقته ويميل اليها وانما كان قلبه طوع حسه فكان يكفى أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابة . وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له . كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب قط امرأة كما أحبها وأنه لن يسلو عنها مهما تتبدل الأحوال وتختلف صروف الحياة . وكان صادقا فى هذا كله . ولكنه لم يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يحب امرأة جديدة حبا ليس له بمثله عهد ولن يكون له بمثله عهد ولن يجد سبيلا الى الانصراف

عنه . ومصدر هذا أن قلبه كما قلت يتبع حسه وأن النساء كن مفتونات به فكان لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبه مظهر آخر . وكان لا يكاد يسمع نداء امرأة حتى يسنهويه نداء امرأة أخرى فكان طمعه متصلا وأمله لا حد له .

يتضح من الغزلية الأولى « هند » مذهب عمر بن أبى ربيعة كاملا في الصياغة الشعرية فهو يعمد الى اختيار أرق الألفاظ وأسهلها وأجملها أيضا ليصور بها تجربته الشعرية التي تتخذ من المرأة محوراً . كما أنه ابتكر فن الحوار مما جعل القصيدة تتدفق حيوية وتتخذ طريقاً الى النمو المستمر بحيث نستطيع أن نقول أن البناء الدرامى هو من أبرز خصائص شعر ابن ربيعة . أنه لا يفرض مشاعره الخاصة على الموقف وإنما هو يعرض الموقف كله كاملاً أمامك لتتأثر به كما تشاء وتفسره كما تهوى فهو بهذا يعد أقرب الشعراء الى المفهوم العصرى للشعر فلا تستطيع أن تقول أنه شاعر رومانسى يجعل من شعره صورة لهومه الذاتية بل هو شاعر واقعى يجعل من شعره مرآة بارعة تعكس صورة المرأة العربية وديهاها وافتانها به أيضاً . انه أول شاعر يواجه المرأة بحقيقة مشاعرها ولذا فقد نال إعجابها لأنه فهمها ونطق بهذا الفهم . فهذه الصورة المألوفة التي تصورها القصيدة الأولى تعكس خبرة حقيقية بعالم النساء . فما هن يجتمعن معا ولا يكون لهن من حديث الا الحب والهوى . وتسال هند أترابها عن محاسنها كما يصفها الشاعر وتريد أن تستوثق أن هذا الوصف الجليل وصف صادق وحقيقى لتطمئن نفسها الى جمالها ويكون لها الحق فى الفخر بهذا الغزل الذى يوجهه لها عمر بن أبى ربيعة . والحبوبة تبدو ساذجة لأنها لا تدرك أن مشاعر النساء يغلب عليها الحسد . هى تسأل هل هى جميلة حقاً كما يصفها عمر . ولكن النسوة يتضحكن ويقلن لها ان الحب هو الذى يجعل المحبوب « حسن فى كل عين من تود » أى ان حسنهما هو حسن خاص لا يراه الا عمر وليس حسنا موضوعيا يراه الجميع وقبل أن تفجع هند بهذا الرأى يكشف لها عمر عن خبيثة أسرار هؤلاء النسوة فيقول لها أن الحسد هو الذى دفعن الى هذا الانقص من جمالها .

حسد حملته من شأنها وتديما كان فى الناس الحسد

ثم استمر الشاعر فى وصفها بهذه الاوصاف الحسية المؤثرة التى يعرفها البدوى والحضرى على السواء فهى باردة فى القبط وساخنة فى البرد فيألفها من متعة رائعة تمنحها له الحبيبة . والشاعر فى هذه القصيدة يستخدم أسلوباً عسرياً تستخدمه القصة والشعر والمسرح والسينما فى عصرنا أيضاً فهو يعود الى الماضى ليلتقط منه المشاهد التى تساعد على تطور الحركة الدرامية ونموها ولذا نراه فى الختام يعود الى الموقف الاول عندما تعرف عليها وحاول أن يؤكد لها قرابة أهله من أهلها والصدائة التى تربط الاسرتين وكأنه يحتال بتلك الحيلة للحصول على

رضاهما طمأننتها من ناحيية أخرى . ثم يختتم قصيدته بهذا
اللهو العايب الذى بدأ به القصيدة وهو طلب موعد معها ومراوغتها
فى ذلك .

كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وكما اتال الشاعر فهى دائما مخلفة للوعد . انك تخرج من القصيدة
بمتعة حسية تروح عن نفسك فهو لا يبكى ولا يتأوه لانها اخلفت وعده لانه
يعرف أنها لابد أن تجيء فى النهاية وأن هذا دلال المرأة الطبيعي .
انه اذن شاعر يتميز أساسا بفهمه العميق لطبيعة المرأة
ودلالها ومراوغتها وأنها تحب هذا اللهو منه وهذا العيب ولذا كان الاعجاب
به عظيما .

أما الغزلية الثانية فقد كرسها الشاعر للوصف وان كان الشاعر لم
ينس أن يعبر عن مشاعره أيضا حين يقول أن وجده بها كوجدك بالماء
البارد ولا ينسى الشاعر أن يدير حوارا بينه وبين صاحبه وبينها وبين
جاريتهما وها هو يصف عظيم حبه لها حين يقول .

ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب

ان القتل هنا محجوبة الى حد ما وهى لا ترى الا محاطة بالحسن
اترابها والشاعر مولع بتصوير مجتمعات النساء حيث يتيح هذا فرصة
لنمو الحركة الدرامية اكبر ويكون الكشف عن مكنون اسرارهن اعظم لان
النساء اذا اجتمعن تصارحن . أما الغزلية الثالثة فهى تتحدث عن دفاع
الشاعر عن نفسه أمام عداله . وقد نصحته قريبة له بان يترك هذا الحب
خوف المقال وخوف الكاشح الاثر فاذا به يفصح عن اصراره وعزمه
على التمسك الشديد بهذا الحب وهنا نلتفت الى معنى جديد تماما .
فالناصحة له تصور حبه كسكرة ينبغى أن يفيق منها ودلالة هذا المعنى
أنه ربما وقع فى هذا الحب دون وعى منه . وهى تشير بهذا أو توصي
بأنه مجرد وهم عليه أن يتركه ولكن الشاعر ينتفض بعد أن فهم المعنى
فيؤكد أن هذا الحب قد اتاه وهو فى قمة اليقظة والوعى
والفهم فهو حب اليقظة النامة ومعناه أنه حقيقى الى أبعد
الحدود لانه يعرف بوعيه مزايا هذه الحبيبة وحقيقة جمالها فما أجل
قول الشاعر :

قالت قريبة لما طال بى سقمى
يا ليتنى افتدى ما تهيم به
قد يعلق القلب حبا ثم يتركه
دع حبها وتناسى الحب تلق به
فقلت قولا مصيبا غير ذى خطل
سمعى وطرفى حليفاها على جسدى
وانكرت بى انتقاص السمع والبصر
ببعض لحى وبعض النقص من عمرى
خوف المقال وخوف الكاشح الاثر
واصبر ولكن كصريع تام من سكر
أتى به حبها فى فطنة الفكر
فكيف أصبر عن سمعى وعن بصرى

وربما كانت أوصاف عمر للمرأة أوصافا خارجية حسية ولكنها
في الواقع تعكس حرارة قوية تعكس صدقا نفسيا وفنيا يتأكد في هذه
الصياغة الشعرية الرفيعة وفي هذا الاحساس العميق بمشاعر المرأة
وصبواتها ونزواتها .

لقد كانت خبرة الشاعر بمعالم النساء وفهمه لنفسيتها ودرايته
العظيمة بالشعر كانت كل هذه العناصر سببا في هذا التوفيق التي لا تاه
معهن وأعجابهن الشديد به . ولقد كان لعمر بن أبي ربيعة أسلوب
جديد ومنهج مبتكر عرف به ومنحه لتراث الشعر العربي وللأجيال
اللاحقة له . فكان فتحا جديدا في عالم الشعر وفي عالم فهم
للمرأة على السواء وبهذا فقد كان حظه العظيم من الحب والاعجاب عادلا
على الدوام .

« في الحب »

للعباس بن الاحنف

القصيدة

غضب الحبيب فهاج لي استعبار
والله لي مما احاذر جار
كنا نغايظ بالوصال معاشرا
لهم الغداة بصر منا استبشار
اذ لا ارى شـكـلا يكون كشكـلا
حسنا وجمعنا هناك جوار
وكأننا لم نجتمع في مجلس
فيه الغناء ونرجس وبهار
ما كان اثمنا مجلسا كتابه
تلك العشي والعدا حضار
مدنية امس العراق محلهما
ولهما بزوراء المدينة دار
ادنى قرابتنا اليها اننا
شخصان يجمعنا اليه نزار
يا ايها الرجل المعذب قلبه
اقصر فان شفاءك الاقصر
نزف البكاء دموع عينك فاستعر
عيننا لفيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها ؟
ارأيت عيننا للبكاء تعـرار
الحب اول ما يكون لجاجة
تأتي به وتسوقه الاقـدار
حتى اذا اقتحم الفتى لجـج الهوى
جاءت أمور لا تطاق كـبار
واذا نظرت الى المحب عرفته
وبدت عليه من الهوى آثار
قل ما بدا لك أن تقول فريـما
ساق البلاء الى الفتى المقـدار
يا فوز هل لك أن تعودى للذى
كنا عليه منذ نحن صـغار
فلقد خصصتك بالهوى وصرفته
عمن يحدث عنكم ويغار

هل تذكرين بدار بكر لهونا
ولنا بذاك مخافة وحذار
متطاعمين بريقنا في خلوة
مثل الفراخ تزقتها الاطيار
أم تذكرين لدجلتي متنكرا
وعلى فروع عائق وخمار
فوددت أن الليل دام وأنه
ذهب النهار فلا يكون نهار
أفما لذاك حرمة محفوظة
أف لمن هو قاطع غدار
سأقر بالذنب الذي لم أجنّه
أن كان ينفع عنذك الاقرار
ما تأمرين فدتك نفسي في فتي
ما تلتقي لجفونه اشجار
من كان يبغضكم فبات مبيتّه
أن الهوى لذوى الهوى ضرار
صرم الاحبة حبله فكأنه
أذ فادروه وضره الاضرار
رجل تطاول سقمه في غربة
نزحت به عن أهله الاسفار
لا يستطيع من الضرورة حيلة
أمسى يرجم دونّه الاخبار
حتى أتيح له وذاك لحينه
ركب رمت بهم الفجاء تجار
حملوه بينهم نحيلاً جسمه
عارى العظام ثيابه أطمار
فأوى قلبه الاكف ملقفا
وله تشدد وتوضع الاكوار
حتى إذا سلكوا به في مهمه
قفى تزل به القطا وتحار
غرضوا من النضو النحيل فعطلوا
منه الركاب وخلفوه وساروا

هذه القصيدة واحدة من أعذب شعر العباس بن الأحنف مع أن معظم أشعاره عذبة رقيقة تخالط النفس فتبهجها ورغم حزنها فهي تسرى عن الحزين . عرف العباس بالولع الشديد بالجمال ولكنه ولع يختلف عن غيره من الغزلين أمثال عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس والاحوص وغيرهم فلم يكن متقلبا في حبه رغم أنه ذكر أسماء بعض النساء غير فوز التي عرف بها فقد ورد في شعره ذكر ظلوم وذلفاء ونرجس ونسرين

وسحر وضياء وربما كانت هذه الاسماء كلها اقنعة لفوز نفسها التي حظيت بمعظم شعره . وحتى فوز هذه انما هي الاخرى قناع لامرأة بغدادية احبها العباس بن الاحنف ومنعه العرف الاجتماعى وأسباب كثيرة أخرى من التصريح بها . ولقد اشتهر العباس بن الاحنف بالعفة فى الغزل كما يتول مؤرخو حياته ومنهم صاحب الاغانى حيث يقول « وكان العباس شاعرا غزلا ظريفا ومطبوعا من شعراء الدولة العباسية وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق . ولعمريه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف فى شيء من هذه المعانى وقدمه أبو العباس فى كتابه الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه وقال رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه قال وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلاء وكان غزلا ولم يكن فاسقا وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد التترف « من الترف » وذلك بين فى شعره وكان قصده الغزل وثلثه النسب وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسع الكلام كثيرا التصرف فى الغزل وحده ولم يكن هجاء ولا مداحا . وواضح من هذا النص الذى أورده صاحب الاغانى أن العباس كان من شعراء الطبع لا من شعراء الصنعة له منهج شعري متميز يروق لاهل عصره يجعل لشعره بها ولالفاظه عذوبة وأنه كان ينتمى من الناحية الاجتماعية الى الطبقة الراقية التى يصرفها الغنى عن التماس الكسب من الوجوه التى كان يعرفها الشعراء فى ذلك العصر . فلم يكن العباس فى حاجة الى مدح ولا الى هجاء ذلك أنه كان مترفا لديه ما يدنيه شأنه شأن غيره من عشاق الشعراء الذين كان لهم من رفعة المكانة الاجتماعية ووفرة المال ما يدفعهم الى التفرغ للحب والشعر مثل عمر بن أبى ربيعة على بعد ما بينهما فى الاسلوب الشعرى ومنهج الاداء وطبيعة النكوين ويبدو أنه كان وسيما لبقا محبوبا من الناس كانوا يتولون عنه « كان والله ممن اذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت وكان فصيحاً جميلاً ظريفاً اللسان لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت » واذا كانت هذه هى خصال الشاعر فانها كانت الخصال الضرورية لنجاح شاعر فى بغداد وفى عصر الرشيد . لقد تهيأت له كل المواهب التى ترشححه شاعر الطبقة المترفة اللاهية وكان أخرى به أن يكون متقلبا فى حبه استجابة للاقبال عليه نظرا لصفاته ولكنه كان عفيفا أحب امرأة واحدة وأبدع فى التشبيب بها كل شعره تقريبا فهو اذن قد خرج على سنة غيره من الشعراء ممن وهبوا مثل ما وهب فهل كان ذلك للضعف فيه أم لقوة أخلاقية وما تحليل هذه العفة التى تصرح بها معظم أبيات شعره فى عصر احتفى بالمجون واللّهون والغزل الحسى والغناء ومجالس الطرب يرى الدكتور زكى مبارك ان عفة العباس لم تكن علامة ضعف حيث يقول « المعروف علميا أن الشهوة قوة لانها اقتحام وانتهاج وان العفاف ضعف لانه زهد وانسحاب والعاشق المنتهب أقوى شعورا من العاشق المنسحب فهو بذلك أقدر على الغزل الساحر والتشبيب الفتان فكيف نعد العفاف من مزايا الشاعر أو العاشق . . افترع الحقيقة فأقول : ان العفاف لا يكون من علائم الضعف الا ان كان عفاف العاجزين

وأنه يكون أعظم قوة حين يصدر عن الرغبة في التصون ومن حق الرجل أن يجاهد هواه ليضاف الى الاشراف وتلك غاية يتطلع اليها اكابر الفتيان ومن هنا تظهر قيمة الصدق العذب في هذين البيتين :

اتاذنسون لـ صـ ب في زيارتكم
فـ عـ دكم شهوات السـ مـع والبـ صـر
لا يـ ضمـر السـوء ان طـال الجـلوس به
عـف الـضمـير ولكن فـاسـق الـنـظـر

هذه عذوبة الصدق . وهى نهاية السمو الخلقى فالعشق الذى يصدر عن النظر غير دنس وهو ليس بأثم عند ضمان عفلة الضمير . وأن العباس فصل فى قضية أخلاقية كانت فى جميع العهود مما يشغل رجال الاخلاق والمهم هو النص على أن عفاف هذا العاشق عفاف أوجت به نية صحيحة والنيات الصحاح هى الاصل فى التماسك الاخلاقى وبدونها لا يتوهم للاخلاق بنيان « اذن فالعباس لم يكن ضعيفا والاما قاوم غرائزه وأغلب الظن أن العصور التى تبوج بالتيارات الحسية وجد فيها اللهو مرتعا فسيحا للنزوات البريئة وغير البريئة كثيرا ما نطرح الجانب الآخر المضاد للمزاج السائد فرغم غلبة مزاج أبى نواس على عصر الرشيد فقد كان هذا العصر فى حاجة الى توازن لا يقيمه الا ظهور مزاج مضاد . وتلك مزية هامة للعصور الذهبية التى تسمح دائما بوجهة النظر الاخرى نظرا لان العصر نفسه يتسع حضاريا ويتعمق كلما تنوعت داخله الانماط الانسانية والسلوكية والابداعية لقد جاء العباس بن الاحنف ليواجه مزاج أبى نواس وأمثاله ولان العباس كان من طبقة غنية مترفة فقد جاء سليلها غنى النفس وليسست هذه قاعدة بالطبع ولكن المعروف عن هذه الطبقة فى عصر الرشيد أنها كانت تعنى اتم العناية بتعليم وتهذيب أبنائها رغم أن العباس ابن الاحنف لم يسلم من المزمتمتين فى عصره الذين رأوا فى نجاح شعره نوعا من الفتنة للشباب والفتيات والحقيقة أنه بدون شعر العباس ابن الاحنف لكانت لوحة الحياة الاجتماعية والفنية فى العصر العباسى الاول شديدة النقص والاختلال ، فقد كان شعره أرق من شعر غيره وأعذب وقد رشحته هذه الرقة والعذوبة للغناء والعصر العباسى كان عصر غناء وطرب فقد زود الموسيقيين والمطربين بأغانيهم الجميلة التى كانت فى الوقت نفسه لا تجاهر بالخروج على مواضع المجتمع وتقاليدهم وكثيرا ما كان هذا الشعر ينشد فى المجالس على شفاه المغنيين والمغنيات كما كان يستخدم فى المصالحات والمعاتبات بين العشاق ثم أن هذا الشعر قد جاء ليثقف فى المنتصف بين شعر الزهد الذى اشتهر به ابو العتاهية وبين شعر الحس الذى اشتهر به بشار بن برد وأبو نواس فهو واسطة بين طرفين تباعد ما بينهما ولهذا استقبلته الاذواق احسن الاستقبال . واذا كان العباس لم يسخر شعره للتكسب فقد جلب عليه هذا الشعر الكثير من الاعجاب والحب وبعض الهدايا ايضا واذا كان العباس بن الاحنف قو وقف شعره على الغزل فقد

رأى البعض في ذلك فقراً في أفانيه الشعرية ولكن الحقيقة أن تخصصه لم يمنعه من التفتن في الموضوع الاثير لديه وهو الحب وان هذا القول الذي يزعم بأن عدم تنوع الموضوع يحرمه من الاجادة يشبه من يقول بأن من يخلص حبه لامرأة واحدة فقد حرم متعة الحب .

ان تجربة الشاعر الاساسية غالباً ما تكون نجربة واحدة تنفرع الى محاور جانبية ولم يقل أحد بأن العبرة بتنوع التجربة مادامت التجربة الفنية بالغة النضج والعمق والعذوبة وهي سمات أساسية في شعر العباس ابن الاحنف — اذا تأملنا هذه القصيدة التي تحمل في الديوان عنواناً مختلفاً هو « اتعار عين البكاء ؟ » والتي اخترنا لها الحب عنواناً لأنه أصبح دلالة مراده اذا تأملنا هذه القصيدة بهرنا هذه العذوبة التي تفيض بها الفاظها وان كانت البداية تحمل لنا صورة من الغضب والخوف دفعا بالشاعر الى أن يستجير بالله من غضب حبيبه . وخوف الحبيب الذي يصل الى حد الجزع والهلع من غضب حبيبه يطلعننا على مدى ما تكنه جوانحه لهذا الحبيب انه الحب العظيم الذي يخشى عليه من الهجر ولعل هذا يذكرنا بالبيت الذي يقول :

اهابك اجلالاً وما بك قـدرة
على ولكن ملء عين حبيبها

هو خوف الحريص لا خوف النافر الكاره . يرسم الشاعر صورة لشماتة حساده فيه بعد أن كان يغيظهم بالوصل وأراد الشاعر أنه لم يكن يسلم من مضايقتهم له أيضاً وذلك باستعمال لفظ « يغايظ » التي تدل على المفاعلة ويبدو أن الغضب قد حدث أثناء جلوسهم مع بعض حسادهم الذين ربما أوقعوا بينهم فيها هو يتشائم من هذا المجلس الذي كان فيه ويبدو أن الشاعر قد عانى بسبب خوفه على حبيبه عذاباً وأهوالاً وكأنه أصبح يشفق على نفسه بعد أن كان يشفق من هجر الحبيب فنراه يخاطب نفسه خطاباً جهراً يستخدم هذه الكلمة الشديدة الدلالة على النداء والتنبيه « يا أيها » كان ينادي شخصاً بعيداً عنه وهذا يعني أنه كان ذاهلاً عن التفكير بالجزع الذي أصابه فاستخدم أداة قوية لجذب وعيه الى التدبر في الامر . وها هو يستخدم مرة أخرى فعل الامر « أقصر » بلهجة قاطعة تتلوها جملة تقريرية مباشرة أقرب الى النثر لأنه يخاطب بها العقل فهي كلمة قاطعة صارمة « أن شفاءك الاقصار » ثم عدل عن فعل الامر الى رسم صورة مؤثرة تبدأ بالفعل الماضي « نزع » وهي كلمة توحى بنفاذ الدمع وبدء انسكاب الدماء أنه بعد أن يرسم الصورة يوحى لنا بنوع من السخرية الخفيفة أمام اصراره على البكاء . ان كنت مصراً على البكاء فان عينك لم تعد تصلح لذلك فاستعر عيناً لفكرت تكون كثيرة الدموع — يا لها من سخرية موجهة تأتي بنا الى أجمل أبيات القصيدة وكأنه بهذا الاستفهام

الانكارى ينبه الى السخرية السوداء التى يوجهها نحوه وكأنه يريد أن يوقظ عقله مرة أخرى ليتدبر ما هو فيه فيقول :

من ذا يعيرك عينه تبكى بهـا
أرايت عيننا للبكاء تعار

انه يفترض أن المخاطب قد صدقه وأنه سوف يستعير عينا يبكى بها فببافته بهذا الاستفهام الانكارى الذى يهدف الى التوبيخ والزجر . ثم بدأ يصف الحب ليكشفه لعينه وكأنه لا يعرفه . . ان الشاعر يجرد من نفسه شخصا آخر يتوجه له بالنصح ولكنه ما يلبث أن يضيق بهذه اللعبة التى لا جدوى من الاستمرار فيها فيتجه الى فوز محبوبته يحاول أن يستميلها اليه بدلا من محاولة الاقلاع عن حبها وهى محاولة يعرف هو قبل ناصحه فشلها . هو يذكرها بأسعد الايام « أيام الطفولة » وأكثرها فتنة ويستعير من عالم الطير صورة الشعرية .

متطاعمين بريقنا فى خلوة
مثل الفراخ تزتها الاطيار

وما أجمل هذه الامنية التى يعلنها الشاعر كما أعلنها قبله كل الشعراء انها أمنية دوام الليل الذى يجمع العشاق وغياب النهار الذى يفرقهم .

فوددت أن الليل دام وأنسه
ذهب النهار فلا يكون نهـار

انه لا يرجو غياب نهار واحد بل يتمنى غياب جنس النهار كله وبعد أن يعبث فى عرض الصور الجميلة يبدأ فى العتاب ثم يصل الى الاقرار بالذنب ويظل فى خضوعه الى أن يضع نفسه فى خدمتها . الى أن يأتى الى نهاية القصيدة فيجسد لنا صورة بالغه الهول والوحشة تزلزل الكيان انها صورة تضمنها ما بداخله من احساس قوى بفقد أنها وكأنها بتخليها عن حبها له تشبه ذلك المريض الذى ثقل على رفاته فى الطريق فأخذوا منه راحلته وتركوه فى الفلاة وحيدا لانهم يئسوا من شفائه . وكأنه يقول لها انها تشبه هؤلاء الرفاق الذين تركوا رفيقهم للموت وبهذه النهاية تصل القصيدة الى قمة الاستعطاف وقمة الاستغفار لهذا الذنب الذى جلب عليه الغضب . هذا هو العباس بن الاحنف لا يدل بشاعريته ولا بوسامته ولا بجاهه الاجتماعى وترفه على حبيبته وانها هو عاشق يخضع لقانون الحب وسلطانه يكون حيث شاء له الهوى أن يكون يحمل شعره كل خصائصه النفسية وتكوينه الروحى السذى جعله يذوب رقعة ونحو لا . واذا كان قد اخلص حبه لامرأة من النساء فقد جاء شعره هو الاخر مرآة لهذا الاخلاص العميق الذى ينسدر حدوته معبرا عن شاعرية نادرة الوجود .

« ته دلالة فانت اهل لذاكا »

للشاعر الصوفي عمر بن الفارض

القصيدة

وتحكم فالحسن قد أعطاك
فعلى الجمال قد ولاك
بك عجل به جعلت فداك
فاختياري ما كان فيه رضاك
بى اولى اذ لم أكن لولاك
وخضوعي ولست من أكفاك
نسبتي عزة وصح ولاك
بين ثومي أعد من قتلاك
فى سبيل الهوى استلذ الهلاك
لو تخليت عنه ما خلاك
هام واستعذب العذاب هناك
ك فعنه خوف الحجب اقصاك
ك باحجام رهبة يخشاك
ك وفيه بقية برجالكا
نكأنى به مطيعا عصاك
هم فيسوحى سراً الى سراكا
رمق واقتضى فئساقا
جفوني وحزمت لقياسكا
قبل موتى أرى بها من رآكا
لعينى بالجفن لثم تراكا
ووجودى فى قبضتى قلت هاكا
بك قرعى فهل جرى ما كفاك
قبل أن يعرف الهوى بهواكا
عنك قل لى عن وصله من نهاكا
فالى هجره ترى من دعاكا
ولغيري بالود من افتاك
بافتتاري بفاقتى بغناكا
فانى أصبحت من ضعفاكا
أحسن الله فى اضطبارى عزاكا
نى ولو باستماع قولى عساكا
وأشاعوا انى سفلوت هواكا
عنك يومنا دع يهجروا حاشاكا

ته دلالة فانت اهل لذاكا
ولك الامر فاخض ما انت قاض
وتلافى ان كان فيه اثلافى
وبما شئت فى هواك اختبرنى
فعلى كل حالة انت منى
وكفانى عزا بحبك ذلى
واذا ما اليك بالوصل عزت
فاتهامى بالحب حسبى وانى
لك فى الحى هالك بك حى
عبد رق مارق يوما لعثقى
بجمال حبيبته بجلال
واذا ما أمن الرجا منه أدنا
فباتدام رغبة حين يغشا
ذاب قلبى فاذن له يتمنا
أو مر الغمض أن يمر بجفنى
فعمى فى المنام يعرض لى الو
واذا لم تنعش بروح التمنى
وحمت سنة الهوى سنة الغمض
أبق لى مقلة لعل يوماً
أين منى ما رمت هيهات بل أين
فبشبرى لو جاء منك بعطف
قد كفى ما جرى دما من جفون
فأجر من تلاك فيك معنى
هيك أن اللاحى نهاه بجهل
والى عشقتك الجمال دعاه
أتري من افتناك بالصداقنى
بانكسارى بذلتى بخضوعى
لا تكللى الى سوى جلد خان
كنت تجفسو وكان لى بعض صبر
كم ضنودا عساك ترجم شكوا
شنع المرجفون عنك بهجرى
ما بأحشائهم عشقت فأسلو

بـريق تـلفتـت للـتـساكا
أو تـسـمـت الـريـح من أنـساكا
ك لـعـيـنـي وفـاح طـيـب شـذاكا
أنا وحـدي بـكل من فـي هـماكا
وبـه ناظـري مـعـنى حـلاكا
فـبـهم فـاتـة الـى مـعـنـساكا
وجـمـيـع المـلـاح تـحـت لـواكا
يا مـلـيـح الـدلال عـنـى ثـناكا
وحـنـو وجـدـتـه فـي جـفـساكا
فـصـارت من غـير نـوم تـراكا
ك وـكان الـسـسـهـاد لى اشرـاكا
ك لـطـرفـى بـيـقـطـلى اذ حـكاكا
بـك تـرت وما رآيت سـواكا
طـرفـه حـين راقـب الـامـساكا
حـيـث أهـديت لى هـدى من ثـناكا
ألفـه نـحـبو باطنى القـساكا
فـيـه بـل سـار فـي نـهار ضـياكا
هـجـيب وبـساطنى مأواكا
مـنـذ ناديتنى اقـبـل كـاكا
وهو ذكـر مـعـبر عن شـذاكا
بى تـملى فـقلت قـصـدى وراكا
غـر غـيرى وـفـيه مـعـنى أراكا
أو تجلى يـسـتـعـبـد النـساكا
ورشادى غـيـسا وسـترى انـتـهاكا
لـك شـرك ولا أرى الاشرـاكا
هـام وجـدا بـه مـدـت أخاكا
من جـمال ولـن تـراه سـباكا
ولـعـيـنـى قـلت هـذا بـذاكا

كـيـف أسـلو ومـقـلتى كـلـما لـاح
أن تـسـمـت تـحـت ضـوء لثام
طـبـت نـفـسـا اذ لـاح صـبـح ثـنايا
كـل من فـي حـماك يـهـواك لـكن
فـيـك مـعـنى حـلاك فـي عـين عـقلى
فـقـت أهـل الجـمال حـسـنا وحـسنى
يـحـشـر العـاشـقون تـحـت لـوائى
ما ثـناى عـنـك الضـنى فـبـذا
لـك قـرب مـنى بـيـعـدك مـنى
مـلم الشـوق مـقـلتى سـهر اللـيل
حـبـذا لـيـلة بـها مـدـت أسـرا
نـاب بـدر النـمام طـيف مـحيـا
فـتـرايت فـي سـواك لـعـيـن
وكـذاك الخـلـيل قـلب قـلى
فـالـديـاجى لـنا بـك الـان غـر
ومـتى غـبت ظـاهـرا عـن عـيـائى
أهـل بـدر ركب سـرـيت بـليلى
واقـتـبـاس الـانـوار من ظـاهـرى غـر
وعـيـق المـسـك حـيـثـما ذكـر اسـمى
ويـضـوع العـبـير فـي كـل ناد
قال لى حـسـن كـل شـئ تجلى
لى حـبـيب أراك فـيـسـه مـعـنى
أن تـولى عـلى النـفـوس تـولى
فـيـه عـوضـت عن هـداى ضـلالا
وحـد القـلب حـبـه فـالـتـفـاتى
يا أخا العـذل فـي من الحـسن مـطلى
لو رآيت الـذى سـبـائى فـيـه
ومـتى لـاح لى اغـتـفـرت سـهـادى

— شاعر هذه القصيدة هو سلطان العاشقين أبو حفص عمر بن الحسن على بن المرشد بن على ويعرف بابن الفارض وينعت بشرف الدين ولد عام ٥٧٦ هـ بمدينة القاهرة وتوفى بها عام ٦٣٢ هـ نشأ نشأة صوفية دينية في كنف والده ابن الفارض الذي كان أحد كبار علماء الدين في عصره ، وقد ولي مناصب هامة متعددة منها نيابة الحكم وعرض عليه منصب قاضي القضاة ولكن والد الشاعر رفض هذا المنصب الخطير وأثر عليه التصوف والتعبد لله بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر وظل كذلك الى أن أدركته الوفاة وكان والد الشاعر وافدا من حجة الى مصر . وفى ظل مثل هذا الاب الزاهد كانت البيئة الاولى التى بثت فى وجدان الشاعر حب الله والزهد فى متاع هذه الدنيا وينقل الدكتور محمد

مصطفى حلمي عن ابن العماد في كتابه شذرات الذهب صورة لهذه
النشأة الأولى فيقول: «نشأ تحت كنف أبيه في عفاف وصيانة وعبادة وديانة
بل زهد وقناعة وورع أسدل عليه لباسه وقناعه فلما شب ونرعرع اشتغل
بفقه الشافعية وأحد الحديث عن ابن عساكر وعن الحافظ المنذري وغيره
ثم حبيب إليه الخلاء وسلوك طريق الصوفية فتزهد وتجرد وصار
يستأذن أباه في السياحة في الجبل الثاني من المقطم ويأوى إلى بعض
أوديته مره وفي بعض المساجد المهجورة في خرابات القرائن مرة ثم يعود
إلى والده فيقيم عنده مدة ثم يشتاق إلى التجرد ويعود إلى الجبل وهكذا
حتى ألف الوحشة وألف الوحش فصار لا ينفر منه ومع ذلك لم يفتح
عليه بشيء حتى أخبره شيخه البقال أنه إنما يفتح عليه بحه فخرج فوراً
في غير أشهر الحج داهياً إلى مكة فلم تزل الحجة أمامه حتى دخلها »
وتروى كتب تاريخ الأدب أن ابن الفارض قد رحل إلى مكة لكي يفتح
الله عليه كما نصحه شيخه البقال . وفي مكة تسامت روحه إلى أفاق
الصفاء الإلهية وفتح الله عليه ومكث بها خمس عشرة سنة امتلاً فيها
قلبه بنور الحب الإلهي . وتصاعد به عشقه للذات الإلهية حتى أصبحت
حالته غير أحوال الناس فقد عبرت قلبه البهجة وأضاءت روحه بإشراق
التجليات عليه كما قال في هذه الفترة أجمل شعره والتقى بالسهرودي
وكان لهذا اللقاء أثر كبير على فكره وشعره . « أقام ابن القاضي بالأراضي
الحجازية حتى جاءه هاتف يدعو للعودة إلى مصر فعاد إليها ليحضر
وفاء شيخه البقال عام ٦٢٩ هـ ثم لازم قاعة الخطابة بالأزهر يحن إلى
أبيه بمكة ماكنها على العبادة والتقوى بعيداً عن المغريات والماديات إلى أن
وفاه أجله عام ٦٣٢ هـ . قضى معظم حياته في ظل عصر الملك الكامل
الذي ولي الملك بعد وفاة والده صلاح الدين الأيوبي عام ٥٩٨ هـ .
وكان ملكاً محباً للشعر والشعراء والأدباء . وقد جهد هذا
الملك في تقريب ابن الفارض إليه وجذبه إلى مجلسه ووصله بالعطايا
والذهب ولكن عمر بن الفارض فر من هذه المغريات وأكثر الزهد وصفاء
النفس ولذة الفناء في محبة الله .

هذه سيرة رجل تقترب به من المتصوفة والزهاد أكثر مما تقترب
به من الشعراء ولكن قارئ شعره سيرى أنه أمام شاعر باذخ العظمة
في قوة الأداء الشعري وعمق الموهبة وبلاغة التعبير وحرارة العاطفة
واتساع الخيال مما يجعل الناقد مضطراً إلى الحكم عليه بالشاعرية
ال مطلقة ولا شك أن زهده وروحانية مشاعره قد امتدت قصائده بهذا
الوهج الذي ينبع من قلب العشاق الصادقين وصنعت من هذه الحرارة
سبائك ذهبية تجلت في صياغته الشعرية الأسرية . ولقد عرفت الأدباء
كلها هذا النمط الفريد من العشاق الذين ادخروا كل حبهم وعشقهم
وشوقهم للذات الإلهية فجاء شعرهم كما جاء شعر عمر بن الفارض
غزير العطاء منيراً بالصفاء الشامل تلمع في دقائق جواهر الحكمة وما
أعظم هذه الحكمة التي تأتي من الحب وما أعظم الحب الذي يتجرد من
العارض الفاني ليتعلق بالباقي الخالد . يقول الدكتور محمد مصطفى

حلمى فى كتابه « ابن الفارض سلطان العاشقين » كان ابن الفارض الصوفى شاعرا نجلت دقه حسه ورقة نفسه ورهافه شسوره فى شعره كما نهلت فى ذوقه ووجدته فهو قد جمع فى شخصه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما احدهما نبع الوجد الروحى وتاييهما نبع الطبع الشعري وهو قد اتخذ من الشعر اداة للتعبير عما تعامب عليه من رياضات ومجاهدات وما عرض له من اذواق ومواجيد وما انتهى اليه من مكاشفات ومشاهدات ولا يحاد يصطنع النثر فى التعبير عن شئ من هذا كله او بعضه عندما كان يقص قصه واقعة وقعت له او يعتب على كلام القى بين يديه اما ذات نفسه واما حياته الروحية فيما بينه وبين ربه ونفسه واما حبه الالهى الذى ظل طوال حياته مرتلا لانشودته ترتيلا جميلا ومسبحا فيه بجمال محبوبته تسبيحا طويلا فكل اولئك كان الشعر مراته المصورة له وادواته المعبرة عنه .

والقصيدة التى نحن بصدها « ته دلالة فانت اهل لذاكا » تجسد بصورة مثالية هذه العاطفة الغالبة التى ملكت على الشاعر عمر بن الفارض جوانب نفسه وقلبه وروحه فهي غزلية تفيض رقة وجمالا وفتنة من هذه الغزليات المتتابعة التى ينتظها ديوان الشاعر . ولقد اختصر الشاعر حياته بكل ما اشتعلت عليه او امتدت اليه واشتاشت له فى جوهر واحد وعاطفة واحدة رآها جذر الوجود ونوره ومعناه وحقيقته والحكمة البالغة من خلقه هذه العاطفة هي « الحب » وحب عمر بن الفارض تجلى فى كل ماكتب من شعر وهو اعظم ما يكون تجليا فى هذه القصيدة الرائعة « ته دلالة » والقارىء العادى لهذه القصيدة يرى انها مثال يقترب من الكمال للصدق فى العاطفة وللإطار الغزلى فى الشعر . فهي تبدو قصيدة غزلية من قصائد الغزل الانسانى . ولكن دراسة حياة الشاعر كما قدمنا هي التى تقدم البرهان على جوهر هذه الغزلية . أن بعض قصائد الشاعر لا تكاد تفترق فى تصويرها لمظاهر العشق وعلامات الهوى عن قصائد الحب الانسانى ولكن سيرة الشاعر هي التى تنفى بشكل قاطع ابتعاد هذه القصائد عن ساحة الشعر الصوفى .

كان الشاعر يحل روحا ترى الجمال فى كل ما خلق الله . فالله هو مصدر الجمال وخالقه ، من هنا ترك الشاعر نفسه تسبح الى أفق من المحبة الالهية زالت عنده الفواصل والحدود والاشارات . واستغرق الشاعر فى جوهر عشقه غير مابى بدلالات اللغة الانسانية التى يدرك هو قبل غيره عجزها عن تجسيد وتصوير ما هو فيه وما يحس به ويشعر .

من هنا كان همه الاول هو التعبير باللغة التى يملكها . كان غارقا من ظفده لرأسه فى الحب وأراد التعبير عن حبه فجاءت قصائده نابضة

بملايح التعبير الانساني ولكنها مشحونة بفاضة بوجده الالهى . كانت اللغة انسانيه ولكن دلالاتها تجاوزت ذلك الى افاق اعلى من ذلك وأرحب واعمق . كان المنصوفة الآخرون مثل ابن عربى وغيره يصطنعون لغة خاصه ذات رموز كثيفه غامضه فى محاوله لخلق تعبير مطابق لآحوالهم . ولكن ابن الفارض خرج على هذه القاعدة . كان يحيا وجدا خاصا به وحالة بالغة الحصوصية ولكنه كشاعر آآثر أن يستخدم لغة عامه هذه اللغة النى فتنت الناس وتركت أثرا واضحا على مشاعرهم . ولاشك أن هذه القصيدة وغيرها من القصائد قد خلقت تيارا دافقا فى عصرها تعبيرا عن الاعجاب والنائر بهذا المنهج الذى فضل ابن الفارض أن يبت من خلاله عشقه للذات الالهية . ولعل أول ملاحظة على هذه القصيدة تكمن فى هذه البساطة الشديدة التى تتدفق بها أبياتها فى يسر وعذوبة . وهذه البساطة تعود الى ثلاثة مصادر : المصدر الأول هو مصرية الشاعر ونشأته فى بيئة سهلة واضحة . فالمصرية فى التعبير وماتزال هذه الميزة باقية حتى فى الانتاج الأدبى المعاصر تعد البساطة والوضوح والسهولة من أبرز سماتها ولا شك أن هذه العناصر تعكس خصائص الشخصية المصرية ذاتها — المصدر الثانى هو وضوح العاطفة وتركزها وتبكنها من روح الشاعر حتى أصبح الشاعر بفرحه الغامر بها هو فيه يجيش بالتعبير السهل الواضح فهو غنى بعاطفته غنى بلفظه مقتنع بمنهجه الشعرى لا يعانى صراعا من أى نوع . الفرغ هو الذى يصنع مثل هذه البساطة والمصدر الثالث هو الغنائية الخالصة التى ترتكز عليها أبيات القصيدة . وهو يعبر عن اعتزازه بمصريته حين يقول :

وطنى مصر وفيها وطرى ولعنى مشتهاها مشتهاها
ولنفسى غميرها أن سكنت يا خليلي سلاها ما سلاها

ولعل أبرز ملاحظة فنية على هذه القصيدة تكمن فى هذا الاستخدام الرفيع والذى ينطوى بلا شك على بعض المبالغة للمحسنات البديعية مثل الجناس والطباق ورد العجز على الصدر وغير ذلك . ولقد نشأ الشاعر فى عصر كان الولع فيه بهذه المحسنات قد بلغ ذروته . وكثير من القصائد قد غرقت الى أذنيها فى زركشة هامشية قد أفقدها روحها الحقيقية ولا شك أن الكثير من الشعراء قد استعذبوا هذا الاتجاه الفنى الذى كان سائدا حتى سقطوا أسرى لجاذبيته الخادعة حتى ماتت قصائدهم ودفنت فى حينها ولكن عمر بن الفارض كان على ولعه بالمحسنات يتميز أولا بموهبة شعرية حقيقية تمثلت فى تمكنه من ناصية اللغة التى يستخدمها ويحسن استخدامها وثانيا وهذا هو الأهم أن عمر بن الفارض كانت لديه العاطفة الحارة والوجدان العامر والخيال الوثاب والامق الواسع مما يجعله قادرا على السيطرة على أدواته من ناحية وعلى النظر الى هذه الأدوات كوسيط لتجربته الصوفية والشعرية وليست اللغة بديلا من هذه الحالة بأى شكل من الأشكال . والى جانب هذه الملاحظة الأساسية حول استخدامه الواسع للمحسنات البديعية هناك هذه القدرة الهائلة

على بناء الصورة الشعرية بناء يوحى بالجدة والقوة . والصورة تتولد عنده من هذا الاستخدام الجديد لقوة الالفاظ وبعث الحركة من خلال المقابلة بين المعانى انه يحقق نوعا من اثاره الدهشة باعادة ترتيب دلالات الالفاظ داخل أبياته . وهو يهز بهذا الاستخدام الجديد رسوخ المعانى القديمة وثبات الصور البديهية لينهض من جديد تصور قادر على استيعاب المعانى التى يريد توصيلها الى الآخرين . هو قادر على شحن الالفاظ من خلال تغيير دلالاتها بواسطة خلق علاقات جديدة لها يوهج جديد وحركة نفسية وروحية لم تكن لها قبل هذا الاستخدام فما هو يعطى نموذجا جيدا لاسلوبه هذا فى مثل هذه الابيات :

فاتهامى بالحب حسبى وائى	بين قسوى أعد من قتلاكا
لك نى الخى هالك بك حى	فى سبيل الهوى استلذ الهلاكا
عبد رق ما رق يوبها لعنق	لو تخليت عنه ما خلاكا

ورغم ان هذه الابيات تطفح حتى الحافة بالمحسنات البديعية الا انه لا يسقط عبدا لهذه المحسنات كما صنع غيره من الشعراء وكما يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى معلقا على هذه الصناعة اللفظية :

ومهما يكن من أمر الصنامة اللفظية التى تبدو واضحة فى بعض المواطن من شعر ابن الفارض فانه لا ينبغى مع ذلك ان ننكر على ابن الفارض انه كان فى اكثر شعره لا سيما الصوفى منه شاعرا مطبوعا بصفة عامة وشاعرا صوفيا ملهما بصفة خاصة . امتاز شعره فى جملة وفى أكثر تفاصيله برقة اللفظ ودقة المعنى وعمق الفكرة وجمال الصورة التى كثيرا ما يتخيلها الشاعر تخيلا نستطيع ان نرى بوضوح أن لغة الشاعر كانت عذبة تستوعب تراث الشعر الغزلى السابق عليه فهو يستخدم كثيرا كلمات الوصل والعذل والفراق والهجر . الذل والخضوع ولكن الموقف العام للتقصيدة يؤكد أن الشاعر فى مقام الرجاء والتسليم وهذا الموقف أول العلامات الفارقة بين الحب الانسانى والحب الالهى هو شاعر صوفى من الابيات الاولى فهو يتخلى فى أول ما يتخلى عنه عن ذاته الممثلة فى ارادته .

ولك الامر فاقض ما انت قاض	فعلى الجبال قد ولاكا
وتلانى ان كان فيه ائتلافى	بك مجل به جعلت فداكا
وبما شئت فى هواك اختبرنى	فاختيارى ما كان فيه رضاكا

هذا التسليم المشفوع بالرجاء والمبطن بالتضحية بالارادة تفصح عنه القصيدة فى أبياتها الاولى ولا شك أن هذا الموقف الواضح البسيط هو موقف عاشق من نوع خاص فمهما كانت عاطفة العاشق التقليدى ولا يوجد عاشق تقليدى — والعاشق عشقا انسانيا فان ارادته وذاته تظل كامنة تحت خضوعه وتوسله والشاعر فى خضوعه يتداعى ليكون حيثما يريد المحبوب وطوع مشيئته فهو يلوذ بالرجاء والتمنى فاذا لم يسفر

الرجاء والتمنى الاعن الهلاك فهو بطمع في بقاء عينه لعلها تشاهد من
شاهد الحبيب .

ابق لى مقلة لعلى يوما قبل موتى أرى بها من وآكسا

وكما يكثر العاشق الذى يعشق عشقا انسانيا من الحديث عن
متاعبه الخاصة من المرجفين والوثةا فعمر بن الفارض يفعل كذلك لانه
يريد أن ينقل اليها بلغته الشعرية تجربته الصوفية : الشاعر غيه يغالب
الصوفى فيغلبه أحيانا وأحيانا يستولى الصوفى على الشاعر فلا يدع
له فرصة للفكاك .

شنع المرجفون عنك بهجرى وأشاعوا انى سلوت هواكا
ما بأحشائهم عشقت فأسلو عنك يوما دع بهجروا حاشاكا

ولا يقصر الشاعر فى كثير من أبيات القصيدة فى التعبير عن المرتبة
العالية والمنزلة الرفيعة لطبيعة عشقه وهذه أيضا من العلامات الفارقة
بين حبه للذات الالهية وحبه غيره لغيره من الفانين .

كل من فى حباك يهواك لكن أنا وحدى بكل من فى حماكا

وهو بالطبع لا يقصد بهذا البيت نوعا من تفضيل نفسه على الجميع
ولكنه يشير الى أن حبه فوق حب الجميع وعاطفته أقوى من
عواطف الجميع ويجد هذا البيت تأكيدا شاملا له فى البيت الذى يقول
فيه الشاعر :

يحشر العاشقون تحت لوائى وجبىع الملاح تحت لواكا

هو سيد العشاق ومحبيه سيد المعشوقين . أن الشاعر الذى
يضحى بذاته وحريته وأرادته يجد تعبته هينا عليه وسهاده ثمنا عادلا
لظهور طيف الحبيب .

ومتى لاح لى اغتفرت سهادى ولعبنى قلت هذا بذاكا

هذه القصيدة نشيد من أناشيد الحب الالهى نزلت الى نهر الجمال
فهى لا تطبق أن تفارق شاطئيه . تؤكد أن الحب الحقيقى هو السعادة
الحقيقية وهو الحكمة والكون كله . فاض قلب الشاعر بأبياته فمغمر
أرواحنا بهذا الصفاء الذى كان يعمر قلبه . ولن نستطيع أن نصل الى
أغوار الدلالات الروحية التى أرادها الشاعر عمر بن الفارض الا اذا
تسلحنا بهذا الكنز الغامر من الاشراف لذى كان يصدر عنه فبمثل حاله
نصل الى فهمه وليس لنسا الا السباحة القريبة من شواطئ نهره
الغزير والا الشوق الى المعرفة الواسعة التى لا نملك فك رموزها وحسبنا
قطرة من بحره .

غزليات ابى تمام

الفزليات

— ١ —

<p>فلأنت أولى لابسبه بلبسه حتى استخف ببدره وبشمسه في فتكه أمر الحياء بحبسسه وصميمه وأخذت عذرة أنسسه ما كنت أول من جنى من غرسه في يومه وصباة في أمسه أمس ضعيفا أن وجود بنفسه</p>	<p>بالابساء ثوب الملاحه أبسه لم يعطك الله الذى أعطاكه رشا اذا ما كان يطلق نفسه وانا الذى اعطيته محض الهوى فلئن جنيت ثماره وغرسه مولاك يا مولاي صاحب لوعة دنف وجود بنفسه حتى لقد</p>
---	---

— ٢ —

<p>ويجعل جسمي تحفة اللحد والرمس محاسنه شمسي نظرت الى الشمس بهجرانه حتى كأننى في حبس من الشوق الا ان عيني في عرس به ان يثور الجن فيه على الانس</p>	<p>بنفس حبيب سوف يتكلنى نفسى جحدت الهوى ان كنت مذل الهوى لقد ضاقت الدنيا على بأسرها أسكن قلبا هائما فيه ماتم وانى لاخشى ان ترائت أموره</p>
---	--

— ٣ —

<p>في عاشق طال به خبسه أو وجهه احسن ام عقله من حسن فهو له كسله أذن تمنى انه مثله لو لم يكدر صفوها مطله</p>	<p>معتدل لم يعتدل عد له أطرافه احسن ام ظرفه انظر فما عاينت في غيره لو قيل للحسن تمنى المنى اى خصال حازها سيدى</p>
--	---

<p>فأتانى في خفية واكتسام جرحتني النوى من الايام أح فيها سرا من الأجسام غير انا في دعوة الاحلام</p>	<p>استزارته فكرتني في المنام الليالى أحفى بقلبي اذا ما يالها لذة تنزهت الاربو مجلس لم يكن لنا فيه عيب</p>
---	---

— ٥ —

الهوى ظالم وانت ظلوم كيف يقوى عليكما المظلوم
للهم جرة ومنك حدود ليس لى منكما محب رحيم
قد برانى الهوى ودله عقلى حل بى منكما البلاء العظيم
انما يعرف السهاد طول الليل من حبلى وصله مصروم

— ٦ —

رقادك ياطرفى عليك حرام فخل دموعا فيضهن سجام
ففى الدمع اطفاء لنار صياية لها بين اثناء الضلوع ضرام
ويا كبدي الحرى التى قد تصدعت من الوجد ذوبى ما عليك ملام
قضيت ذما للهوى كان واجبا على ولى ايضا عليه ذمام
وياوجه من ذلت وجوه أعزة له وسطا عزا غئيس يرام
اجر مستجيرا فى الهوى بك باسما اليك يديه والعيون نيام

— ٧ —

الحسن جزء من وجهك الحسن يا قمرى موفيا على غصن
ان كنت فى الحسن واحدا فانا يا واحد الحسن واحد الحزن
كل سقام تراه فى أحد فذاك فرع والاصل فى بدنسى
كوامن الحسب قبل كونك فى افئدة المعاشقين لم تكن

— ٨ —

لانصدى فالصد امر عظيم وارحمى فالحب بر رحيم
امن العدل ان قلبك سأل والهوى ثابت بقلبى مقيم
ثم الحققت بى الاساءة والظلم وغيرى هو المسئء الظلوم
ما اجترمتا اليك جرما ولكن حسب هذا الزمان ليس بدوم

شاعر هذه الغزليات هو ابو تمام حبيب بن اوس الطائى واحد من
ابرز ثلاثة شعراء عرفهم العصر العباسى كما يقول صاحب الوسيط في
الادب العربى والاخران هما البحتري والمتنبى . . وابو تمام صاحب مذهب
شعرى جدد به ديباجة القصيدة العباسية واصبح علما على منهج تفرد
به . ولد عام ١٩٠ هـ بقرية جاسم قرب دمشق ورحل الى مصر صغيرا
وكان يعمل سقاء بجامع عمرو ابن العاص . وتأثر بعلماء المسجد وادبائه
فتعلم العربية وحفظ مالا يحصى من شعر العرب ونبغ فى قوله ثم خرج الى
بغداد حيث دبج المدائح فى المعتصم ووجد عنده حظوة عظيمة واكثر من
مدائح الكتاب والوزراء والعمال والولاة وتقرب الى كبار المسؤولين حتى
ولاه عبد الحسن بن وهب بريد الموصل فأقام بها الى ان مات عام ٢٣١ هـ

يقول عنه صاحب الاغانى « شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعانى غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره وله مذهب فى المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار فيه والسلوك فى جميع طرقة والسليم من شعره النادر شئ لا يتعلق به أحد . وله أشياء متوسطة ورديدة رذلة جدا وفى عصرنا من يتعصب له فيفرط حتى يفضل على كل سالف وخالف واقتوام يتعمدون الردى من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك . » ولقد افترط أبو تمام فى المدائح حتى حصد بها مغنم غيره من الشعراء واخلمهم حتى انهم يقولون بأنه لم يترك شيئا من الجوائز لشاعر غيره لجودة شعره فلما مات قسمت الجوائز التى كان يأخذها على بلاى الشعراء . ولعل فنه الجديد الذى يقوم على الخيال المركب وتوليد الصور الشعرية الغريبة ونبد المألوف من المعانى والصياغة القوية غير المألوفة لشعراء ذلك العصر هى التى ادهشت الابرء وحبيبتهم فى شعره وقد كان أبو تمام لمعرفته بمستوى شعره وطمعه أيضا انتقاما لايام الفقر الاولى فى حياته حيث كان أبواه فقيرين يترفع عن الجوائز التافهة ولا يرضيه الا المال الغزير ويروى صاحب الاغانى لما شخص أبو تمام الى عبد الله بن طاهر وهو بخراسان أثبل الشتاء وهو هناك فاستثقل البلد وكان عبد الله وجد عليه وأبطا بجائزته لانه نثر عليه الف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فأغضبه وقال يحتقر فعلى ويترفع على . فكان يبعث اليه بعض الشئ كالقوت فقال أبو تمام :

لم يبق للصيف لارسم ولأطلل ولا قشيب فيستكسى ولا سمل
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان أنقضى معروفا وغدت يسراه وهى لنا من بعدها بدل

فبلغت الابيات أبا العبيل شاعر عبد الله بن طاهر فأتى أبا تمام واعتذر اليه لعبد الله بن طاهر . وعاتبه على ما عتب عليه من أجله . وتضمن له ما يحبه ثم دخل الى عبد الله فقال : أيها الأمير أنتهاون بمثل أبى تمام وتجنفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة فى قدر — والاحسان فى شعر — والشائع من ذكره لكان الخوف من شره والتوقى من ذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته فكيف وله بنزوعه اليك من الوطن وفرائته للسكن وقد تصدك عاقدا بك أمله معملا اليك ركابه متعبا فيك فكره وجسمه وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضيا ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع الا قوله .

تقول فى قومس صحبى وقد أخذت منا السرى وخطا المهية القود
أطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله . لقد نبهت فأحسننت وشسفعت فلطفت وعاتبت
فأوجعت ولك ولأبى تمام العتبى أدعه يا غلام فدعاه فناداه يوما وأمر له
بألفى دينار وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر بحراسته الى آخر عمله .
ولم يكن المدح هو الفن الاوحد الذى يبرز فيه أبو تمام بل ان مراثيه وفي
مقدمتها مراثيته الشهيرة في محمد بن حميد الطوسي تؤكد أنه كان شاعرا
يجيد الرثاء اجادة تضعه في قمة شعراء هذا الغرض القديم وكان تصويره
للطبيعة جديدا في أدائه فقد أبدع في هذا الجانب الهام والذي يكاد
الشعر العربى يبدو فيه فقيرا بجانب الاغراض الاخرى ولا شك أن
شعره الغزلى قد ارتوى من خبرته الفنية الطويلة فجاء هو الآخر ناضجا
رقيقا بالغ العذوبة رصينا جذل العبارة نضير الصورة . ولقد تأثر
أبو تمام فى شعره وحياته بثقافة عصره هذه الثقافة التى شامت
فيها روح الترجمات من الاداب الاجنبية خاصة الاداب اليونانية والهندية
وظهرت فى شعره هذه الافكار الفلسفية والاقيسة المنطقية التى تؤكد أن
عقله وروحه قد انغمسا بقوة فى هذه الثقافات الجديدة النشيطة التى ذاعت
وأثرت لا فى علماء الكلام والفقهاء وحدهم وإنما تمثلها الشعراء أيضا
يقول الدكتور « شوقي ضيف » وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه
انقض على معارف عصره انقضاضا . تمثلها تمثلا دقيقا وخاصة التاريخ
وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق . أما التاريخ فيتضح فى
كثير من جوانب مديحه . وخاصة حين يعرض لقبيلة المذوح ووقائعها
وأجادها فى الجاهلية والاسلام على نحو ما يلتقنا فى قصائده لخالد
ابن يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى وكذلك حين يقرن
وقائع بعض الابطال ودويها فى الخافقين الى وقائع جاهلية واسلامية
مشهورة . ثم يقول الدكتور شوقي ضيف . وجعلته صلاته بالمنطق
والفلسفة يكثر من استخدام الادلة المنطقية وهى عنده تستمد من نفس
احساسه العميق بتشابك حقائق الكون فاذا بعضها يرى من خلال بعض
بل اذا بعضها يتخذ دليلا وحجة على بعض . ويتسع التأثر بالفلسفة
عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته وهو غموض بهيج كغموض
الطبيعة فى الصباح والغروب اذ يجلله دائما شفق يأخذ بالالباب ونعجب
اذا نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على اكثاره من اللفظ
الغريب ومن التصاوير واللوان البديع حتى قالوا أنه أفسد الشعر وهو
لم يفسده بل هيا له ازدهارا رائعا تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة
والمنطق وبالشعر العربى قديمه وحديثه كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته
يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره . بل جعلته صاحب مذهب
مستقل بخصائصه العقلية والزخرافية .

يستقيم لنا من قراءة شعر أبى تمام فى مراثيه ومداخله ووصفه
للطبيعة منهج شعرى متميز تتضح خصائصه فى غرابة صورته هذه
الغرابة الناشئة عن تجاوز العلاقات الفنية داخل هذه الصور لحدود
البلاغة القديمة وغموض معانيه لجووح خياله وشططه الفلسفى وكثرة
الاقيسة العقلية والمنطقية فى شعره وانتقاء الغريب من الالفاظ استجابة

للمبالغة الخيالية والنفسية التي كانت من أهم سماته . فهل ينطبق هنا المنهج الشعري عند أبي تمام على غزلياته التي نتعرض لها الآن ؟ إذا تأملنا الغزلية الأولى برزت لنا على الفور الصورة العقلية المنطقية وراء صورها . فها هو يأمر حبيبه باستهلاك ثوب الحسن ومعنى هذا الاستهلاك هو التمتع به فهو ينصح بالتمتع بهذا الجمال الذي هو أولى به وها هو المنطق يبرز في هذه المقارنة بين تفوق جماله الساحق وبين بهاء الشمس والقمر فالبيت كله يعكس قياسا منطقيا ونظرة عقلية وها هي المطابقة في البيت الثالث بين الاطلاق والحبس وها هو يرى أن مجناه من غرسه كان منطقيا ثم تخفف قبضة الصورة العقلية ليظهر التقسيم البلاغي ورد العجز على الصدر حين يقول :

دنف وجود بنفسه حتى لقد أمسى ضاعفا أن وجود بنفسه

ان اللغة في هذه الغزلية واضحة لا غموض فيها وربما كان الدافع الى ذلك هو الحاحه على توضيح موقفه من هذا الحبيب الذي يضمن عليه عليه بجماله وهو يحاول أن يقنعه بأنه إنما يعاني من أجله في يومه وينصحه بالتمتع معه بهذا الحسن الباهر الذي يجاوز بهاء الشمس والقمر . ولا نملك الا الاعجاب بهذه الصور البارة التي تتحرك في اطار مألوف من ثيود البلاغة القديمة والمحسنات البديعة المعروفة ولكن نظل هذه الصور وهذه الغزلية أكثر إثارة لموقف العقل من موقف الحس فاذا انتقلنا الى الغزلية الثانية . وجدنا الشاعر مازال يشكو من هجران حبيبه هذا الهجران الذي تركه في الغزلية الاولى على حدود المرض ولكنه في الغزلية الثانية يقترب به من الموت نفسه . بل أن هذا الحبيب القاسي سوف يقدم حبيبه تحفة للحد والقبر . وها هو الشاعر يلجأ الى براغته وذكائه في استمالة قلب حبيبه هذا التودد الذي يصعد به الى المبالغة . وهو مرة أخرى يضع حبيبه فوق مرتبة الشمس المضيئة فهو يعلن حجوده للهوى ان كان منذ اتخذ محاسن الهوى شمسا له قد نظر الى هذه الشمس الحقيقية . وأي تعبير جميل غير مباشر يتضمنه هذا البيت أنه يبدو كما لو كان بيتا تقريريا مباشرا ولكنه في الواقع بيت شديد التركيب غنى بالمعاني الكثيرة فهو في بدايته يتهم بنفسه بحجود الهوى . وهذا التقديم للحجود يعنى أنه يراه فادحا وجليلا وغير محتل وهو يمزج بين الحب والمحسوب حين يتحدث عن المحاسن فهو قد اتخذ هذه المحاسن الرائعة شمسا له . والشمس هنا أعظم وأجل قدرا من القمر . فهو يرى فيها قوة الحياة ذاتها . النور والدفع وقوة النماء ويدفع الهجران الشاعر الى اعلان الضيق بالدنيا كأنه في سجن بسبب الهجر الا انه يقفز الى بيت جميل تلعب فيه المقابلة دورا دراميا بديعا . فها هي كلمة — أسكن — تحمل الكثير من الدلالات الموحية بالهياج والجزع والقلق واللوعة كل هذا في كلمة واحدة وكأنه يمسك بجواد جامح يريد أن يطير ويركض ثم تأتي المقابلة بين القلب الجاثم في مأتم الاحزان والعين المنتهجة بالعرس الذي خلقه جمالها . فقلبه حزين لعدم طمأنينته وخوفه وفزع

وعينه سعيدة كأنها فى عرس . المقابلة بين الماتم والعرس ليست وحدها التى خلقت جمال الصورة وانما الفصل اللا منطقى بين القلب وبين مدركات الحواس . هذا الإيهام الشعري الذى يهدف الى بيان حالين متناقضين بل ويهدف الى تجاوزهما والى تصوير قوة الهجر وجمال المحبوب لتكون اللوعة تامة التصوير . ثم يأتى الى بيت تفسده المبالغة حتى تقتله حين يرى أن الجن ستثور على الانس بسببه . هى مبالغة فائرة لانها تأتى من خارج تجربة الشاعر وعناصرها الذاتية . وفى الغزلية الثالثة نجد الشاعر وقد فرغ من بث لواعجه الى تصوير أحوال المحبوب وهو تصوير تلعب فيه المحسنات البديعة والتلاعب بالالفاظ دورا أساسيا — فما هو المحبوب . معتدل لم يعتدل عدله ورغم كثرة الجناس فالبيت لا يفقد جماله فالمعتدل الاول هو اعتدال القوام . ولم يعتدل عدله تعبير عن ظلمه فى حبه وفى حكمه على هذا العاشق الذى طال به الجنون ثم يتجه الشاعر الى التقسيم أطرفه أحسن أم ظرفه . أو وجهه أحسن أم عقله . يريد تامة كاملا فى الحسن والظرف والعقل . وما يكون الكمال البشرى اذا خرج عن جمال الهيئة والطبع وصحة العقل . انه فى هذا البيت الراقص يعطى انطبعا بمعنى تام مؤكد — واذا كانت المبالغة قاتلة لبعض الابيات مثل ثورة الجن على الانس فانها هنا فى البيت الذى يقول فيه :

لو قيل للحسن تمن المنى اذن تمنى انه مثله

١

هى هنا مبالغة مقبولة تشع فتنة ورقة . ان ابا تمام يستخدم البلاغة التقليدية ببراعة المكتشف الاول لقد كان واحدا من مؤسسى علم البديع بحيله الشعرية ولكن الشعراء الذى أفسدوا هذه المحسنات كانوا لا يملكون عبقرية هذا الشاعر الفذ . ثم ننقل الى الغزلية الرابعة فاذا تعبنا من الحلم يأخذ شكلا متوسطا ليس فيه براعة التجربة الحسية ذلك لانها تأمل عقلى خالص . أما الغزلية الخامسة فهى تمضى فى نفس منهج أبى تمام الشعرى . فما هو يواجهنا من البداية بهذه الحجة العقلية القوية فالهوى ظالم بطبيعته والحببية أشد ظلما من الهوى . ولذا يتساءل الشاعر تساؤلا أنكاريا يائسا باطلا كيف ينجو المظلوم من بطش ظالمين . الهوى يدفعه الى الاقدام والالاحاق وهى هاجرة تصده فكانه مدفوع بقوة تاهرة هى الهوى لا يملك لنفسه فكاكها منها وهى ممتنعة لا تنصفه فيخف حزنه وآله ثم يشكو سقمه وبلاءه وسهر الليالى والسهاد أما الغزلية السادسة فهى أشد هذه الغزليات لوعة وحزنا وما هو فيها لا يتجدد . بل يدعو عينه الى ترك النوم وانهمار الدموع فقد يطفىء الدمع نار الهوى المتأجج فما هى نار الحب مشتعلة فى جوانح نفسه وبين ثنايا الضلوع وما هو يقول لكبه التى تصدعت ذوبى ، ما عليك ملام هو يدرك ما فى كبده من حرارة الحب وعنائه فلا لوم على هذه الكبدة بعد أن تصدعت من أن تذوب فالعبد ثقيل والهم لا يطاق . وكان الشاعر

قد انتهي الى يأس لا شفاء منه بعد أن قضى ما عليه من واجبات وأعباء
تجاه هذا الهوى وانتظر الجواب فلم يجد الآخرين يرمون ذممه كما رماه
لهم . هل هي غزلية أم شكوى الية من الهجر . أن هذه المقطوعة
تبتعد عن المحسنات البديعية والصور العقلية لان قوة الاحساس والانفعال
بها قد صاغتها بعيدا عن ترف العثل وأقيسته وتاملاته مدموعه المنهرة
لم تترك له فرصة لاختيار المنطق . ويعود في الغزلية السابعة الى لعبته
المفضلة الى صورة العقلية ومقابلاته . وهذه الغزلية تعكس رؤية
فلسفية واضحة . هو هنا يقيم مقارنة متصلة بين الحسن الكلى
والحسن الجزئى بين وجه الحبيب الذى يمثل الكلى وبين معنى الحسن
الذى يمثل الجزئى فما هو الجمال بعض هذا الوجه الجليل وما هو
الشاعر يقارع واحد الحسن بواحد الحزن يعنى نفسه ويقدم للحبيب
سقامه برهانا على حبه . هذا الحب الذى لم يكن موجودا قبل حصول
هذا المحبوب في أفئدة العاشقين فكأنه ينفى أن ثمة حبا سابقا على حب
هذا المحبوب الزائد الحسن . أما الغزلية الأخيرة فهي نصيحة رقيقة من
عاشق يرى الظلم قد حاق به دون ذنب جناه . يتوسل الشاعر بالمنطق
والحجج والعقلية مرة أخرى في محاولة لاقتناع المحبوب بالعدول عن صده
ويدعو الى الرحمة به فليس من العدل أن يكون قلب المحبوب خاليا
ساليا وقلبه ثابتا على المودة ولماذا وهو لم يذنب ولم يسئ أى جرم
أتى به الشاعر حتى يلتقى كل هذه الاساءة والصدود وكأنه في
الختام يحذر المحبوب من أن الحب في هذا الزمان عابر لا دوام
له فهو تحذير يتضمن دعوة للاستمتاع بمباهج هذا الحب ونعيمه .
ان أبا تمام يظل في كل شعره محتفظا بخصائصه التى تميز بها
وصار بها اماما بين شعراء عصره وأعطانا صوتا جديدا فريدا في الشعر
العربى كله .

لامية العجم

للشاعر الطفرائي

القصيدة

اصالة الراى صاننتى عن الخطل
مجدى آخرى ومجدى اولا شرع والشمس رآد الضحى كالشمس فى الطفل
نيسم الاقامة بالزوراء لا سكنى
ناء عن الاهل صفر الكف منفرد
فلا صديق اليه مشتكى حزنى
طال اغترابى حتى حن راحلى
وضج من لغب نضوى وعج لما
اريد بسطة كف استعين بها
والدهر يعكس امالى ويقنعنى
وذى شطاط كصدر الرمح معتقل
حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت
طرقت سرح الكرى ورد مقلته
والركب ميل على الاكوار من طرب
نقلت ادموك للجلى لتنصرنى
تنام عينى وعين النجم ساهرة
تعبين على غى هههههت به
انى اريد طروق الجى من اخيم
يحمون بالببيض والسمر اللذان بهم
فسر بنسا فى ذمام الليل مهتديا
فالحب حيث العدى والاسدراضة
قد زاد طيب احاديث الكرام بها
تبيت نار الهوى منهن فى كبس
يقتلن انشاء حب لاحراك بهسا
يشلى لديغ الغوانى فى بيوتهم
لعل المامة بالجزع ثائبة
لا اكراه الطعنة النجلاء قد شفعت
ولا اهاب صفاح البيض تسعدنى
ولا اخل بغزلان اغازلها
حب السلامة يثنى هم صاحبه
فان جنحت اليه فاتخذ نفقا
ودع غمار العلى للمقدمين على

وحلية الفضل زاننتى لدى العطل
بها ولا ناقتى فيها ولا جملى
كالسيف عرى مثناه من الخلل
ولا انيس اليه منتهى جذلى
ورحلها وقرى العسالة الذبل
يلقى ركابى ولج الركب فى عذلى
على قضاء حقوق للعلى قبلى
من الغنيمة بعد الكد بالقفل
بمثله غير هياب ولا وكل
بقسوة اليأس فيه رقة بالمقل
والليل اغرى سوام الليل بالقل
صاح وآخر من خمر الكرى ثمل
وانت تخذلنى فى الحادث الجلل
وتستحيل وصيغ الليل لم يحل
والقى يزرع احيانا من الفشل
وقد رباه رباة الحى من ثقل
سود الغدائر حمر الحلى والحلل
بنفحة الطيب يهدينا الى - الحل
نصالحها ببياه الفتح والكحل
ما بالكرائم من جبن ومن بخل
حرى ونار الثرى منهم على القلل
وينحرون كرام الخيل والابل
بنهلة من لذىذ الخمر والعسل
يدب فيها نسيم البرء فى علل
برشقة من نبال الاعين النجل
بالمح من صفحات البيض فى الكلل
ولو دهنتى اسود الغيل بالغيل
عن المعالى ويفرى المرء بالكسل
فى الارض او سلما فى الجو فاعتزل
ركوبها واقتنع منهن بالبلبل

والعز عند رسيم الانيق الذليل
معارضات مثاني اللجم بالجدل
في ما تحدث أن العز في النقل
لم تبرج الشمس يوما داره الحمل
والحظ عني بالجهل في شغل
لعينيه نام عنهم أو تنبه لسي
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
فكيف أرضى وقد ولت على عجل
فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
وليس يعمل الا في يدي بطول
حتى ارى دولة الاوغاد والسفل
وراء خطوى اذ أمشي على مهل
من قبله فتعني فسحة الاجل
لى أسوة بانحطاط الشمس من زحل
في حادث الدهر ما يغني عن الحيل
فجاذر الناس واصحبهم على دخل
من لا يعول في الدنيا على رجل
فظن شرا وكن منها على وجل
مسافة الخلف بين القول والعمل
وهل يطابق معوج بمعادل
على العهود فسبق السيف للعدل
انفقت عبرك في ايامك الاول
وانت تكفيك منه صفة الوصل
يحتاج فيه الى الانصار والخول
فهل سمعت بظل غير منتقل
أصبت فني الصبت منجاة من الزلل
فأربا بنفسك أن ترعى مع الهمل.

يرضى الذليل بخفض العيش يخفضه
فادرا بها في نحور البيد جافلة
ان العلى حدثتني وهي صادقة
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى
أهبت بالحظ لو ناديت مستمعا
لعله ان بدا فضلى ونقصهم
اعل النفس بالامال ارقبها
لم أرض العيش والايام مقبلة
غالى بنفس عرفاني بقيمتها
وعادة النسل أن يزهي بجوهره
ما كانت أوثر ان يمتد بي زمنى
تقدمتنى اناس كان شوطهم
هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا
وان علاني من دونى فلا عجب
فأصبر عليها غير محتال ولا ضجر
أعدى عدوك من وثقت به
وانما رجل الدنيا وواحد لها
وحسن ظنك بالايام معجزة
غاض الوفاء وفاض الغدر وانفجرت
وشان صدقت عند الناس كذبهم
ان كان ينجع شيء في ثباتهم
يا وارد أسؤر عيش كله كدز
فيم اعتراضك لج البحر تركبه
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا
تزجو البقاء بدار لا ثبات لها
ويا خبيرا على الاسرار مطالعا
قد رشحك لأمير ان فطنت له

شاعر هذه القصيدة هو ابو اسماعيل مؤيد الدين الحسين بن علي
ابن عبد الصمد الذي اشتهر بلقب « الطغرائي » هو صاحب الطغراء وهي
الطرة التي تكتب في أعلى الرسائل فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها
نعت الملك الذي صدر عنه الكتاب . وكان للطغراء ديوان خاص بها في
دولة السلاجقة التي حكمت بغداد وبلاد العجم في الفترة من عام ٤٤٧هـ
حتى عام ٥٢٥هـ ويضم هذا الديوان : الرسائل والانشاء .

ولد الشاعر عام ٤٥٣هـ في جى من اصبهان في اسرة من ولد ابي
الاسود الدولى .

ولم يدخر جهدا في تثقيف نفسه ثقافة واسعة جعلته عارفا بأحداث
عصره متقنا لادوات فنه . الكتابة والشعر . كان طموحا الى المناصب

العالية يرى نفسه أهلا لأعلى المناصب فى دولة السلاجقة فانخرط فى سلك الكتاب يسعى الى اقامة أوثق العلاقات مع الرؤساء والوزراء وبعد أن تقلب بين السراء والضراء أصبح نائبا لديوان الطغراء ولم يلبث أن أصبح رئيسا لهذا الديوان نفسه . ولكنه كان يرى فى هذا الديوان مجرد مرحلة على الطريق الى الوزارة وقد بدأ يعمل لهذا الهدف مثابرا لا يكل وقد لاحظ المحيطون به من كبار موظفى دولة السلاجقة هذا الطموح الغلاب الذى يشتعل فى صدره كما كانوا خير من يعرف مواهب الطغرائى فى الشعر والنثر مما يجعل هدفه قريبا منه . وكان أن حاصرت الكراهية والحسد والكيد وها هى الدسائس تسد عليه طريقه متخذة من الكذب والامتناع وسيلة للقضاء على هذا الشاعر الطموح . وقد انتصرت الاحقاد فعزل عن ديوانه فى الوقت الذى كان يخطط فيه للوصول الى الوزارة ولا شك أن الاحباط قد أصاب نفسه المرهقة بجرح غائر فى سويداء قلبه مما دفعه الى الرحيل والهجرة الى اصفهان ولعله أمضى فترة معتزلا ومنصرفا الى الكيياء والتأليف كما يقول محققا ديوانه الدكتور على جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبورى . ولكن الشاعر يعود من جديد الى ديوان الطغراء فى اصفهان عام ٥٠٩ هـ ولكن لعنة حساده تطارده فيكيد له أحد هؤلاء الحاقدين فيتهم بالسحر ويعزى الى سحره مرض السلطان محمد ولم تلبث الاوساط القريبة من بيت الحكم أن صدقت الشائعات عن سحره فعزل مرة أخرى ولكنه عاد مرة ثالثة الى الديوان بعد وفاة السلطان محمد وتولى ابنه محمود السلطنة من بعده ولكن اللعنة تطارده حتى تضطره مرة ثالثة الى الاعتزال وملازمة بيته . ولم يهدأ باله لهذه العزلة رغم أنه كان فى التاسعة والخمسين من عمره ولكن شهوة الطموح والوصول الى كرسي الوزارة كانت ما تزال متأججة فى صدره . فرحل الى الموصل حيث الملك مسعود بن السلطان محمد الذى استوزره . وكان صغيرا فى الحادية عشرة من عمره يدير له أمر مملكته قائد جيشه . ولم يلبث هذا القائد أن فكر فى انتزاع السلطنة من السلطان محمود وضبها الى سلطنة مسعود حتى تكون تحت يده وتبدأ المواجهة بين جيوش السلطان محمود وأخيه السلطان مسعود ويكتب النصر للأول ويأسر الشاعر بعد هزيمة حامية ويواجه أعداءه مرة أخرى . أعداءه الذى حاصروه واثعدوه وها هم الآن يسكنون به كالبائس الجريح لا يملك من أمر نفسه شيئا ويتهم الشاعر بالاحاد وهي غريبة كانت مجرد ذريعة للقضاء عليه ومثل الشاعر ظلما فى ربيع الاول من عام ٥١٥ هـ . ولم يمكث الشاعر فى المنصب الخطير الذى أفنى حياته طلبا له أكثر من عام وشهر واحد وهكذا فتك به طموحه الغلاب فى زمن كانت الدسائس والمؤامرات هى نظام العصر وطبيعته . ولا شك أن مأسوية العصر الذى عاش فيه الشاعر هى التى طبعت فى نفسه هذه الصورة القاتمة للناس من حوله وجعلته ساء الظن بهم . فالحلقة المفرغة من الولاية والعزل والاقامة والرحيل والوصول الى الهدف والبعد عنه قد ألقت به فى جحيم حقيقى من الشك والريبة والخوف وكان الشعر هو حليفه الدائم الذى صب فى قواريره الزاهية عصارة تجاربه القاسية ومرارة إيمانه التى كانت تزدد قتامة ويبدو أن تجدد

الامل في حياته هو الذي جعله يحرص على المثابرة وتجاوز
اليأس في نفسه . فقد كانت حظوظ حياته المتقلبة مراوغة فلا هي تدعه
في النجاح الذي شقى في الحصول عليه ولا تلقى به في هو فشل نهائي
يدفع به الى يأس مريح .

والقصيدة التي نحن بصددھا لامية العجم واحدة من عيون الشعر
العربي في كل عصوره وبها اشتهر الشاعر في مختارات الشعر العربي
ولدى الشراح والباحثين والنقاد والبلاغيين . ولعل هذه القصيدة أن
تكون اكمل نموذج لحياته وشعره ففيها كل عناصر المأساة التي حكمت حياة
الشاعر رغم انه قالها في بغداد عقب عزله الاول عام ٥٠٥ هـ ولكنها توشك
أن تكون نبوءة كاملة بمستقبل أيامه كما كانت صورة تقترب من الكمال
لماضيه الذي قضاه في صحبة هواجسه ومخاوفه وشكوكه وحزنه
وياسه وأمله .

والقصيدة من الناحية الفنية توحى باتجاه الشعر العربي في هذا
الثرن السادس الهجري الى الدخول في شحوب الاول على أبواب عصور
الانحطاط الطويلة التي سادت الادب العربي بعد سقوط الخلافة الاسلامية
في أيدي الاجناس الاعجمية . هذه العصور التي تتميز بالاحتقالات
الشديد بالمحسنات البديعية من جناس وطباق ورد العجز على الصدر
ولعب بالالفاظ الى آخر هذه الانواع التي عكف البلاغيون المتأثرون بعلم
المنطق على صياغة قواعدها وأقبل عليها الشعراء السطحيون تعويضاً
عما افتقدوه من مواقف كبرى في مواجهة الحياة التي كانت تتردى بهم الى
حيث لا يعلمون ولا يقدرّون على مقاومته . كان عصر المتنبي وأبى العلاء
وأبى فراس قد انقضى وبدأت عصور الضعف ولكن ذلك لا يعنى أن القصيدة
تعانى من هذه الأمراض الفنية . ولكن القصيدة قد كتبت في لغة
تمت الى عصر العرافة من الشعراء بأوثق الاسباب فهي جزلة . متينة
الصياغة حافلة بالصور القوية الاخذة تقترب من القصيدة الجاهلية
في وصفها للراحلة وتندمج في القصيدة العباسية وهي تتحدث عن
الخمریات ولكنها تؤكد بكل وضوح أنها بنت عصرها الذي كتبت فيه وأنها
جسدت مأساويته وارتفعت في أسلوبها الى التعبير الشامل الذي
يبدأ من التجربة الجزئية الخاصة ويصل الى العام . وتلمع خلالها أبيات
قد تختلف معها من الناحية الفكرية حين نفهم الصلة بين الانسان والعالم
على أساس من الشك والخوف والريبة في إطار من العزم واليأس ولكن
الشاعر في النهاية ليس مفكراً انه شاعر يستخدم أدوات باللغة الحساسة
لينفذ الى صميم وجداننا .

اشتهرت لامية العجم كواحدة من أفضل قصائد الشعر العربي
واشتهر بها الطغرائي فهل هي قصيدة في الحكمة كما يوحي نصفها الآخر ؟

أم هي قصيدة في الشكوى كما توحى معظم أبياتها ؟ أم هي قصيدة متعددة الأغراض وإن كانت تعبر في حذق ومهارة وصدق نادر عن أزمة حادة يعيشها الشاعر . هي أزمة حياته كلها بل الصحيح أنها أزمة العصر الذي عاش فيه الحكم السلجوقي الذي أنهى دولة بنى بويه وأقام أساس ملكه على شريعة النظم المساوية التي أقامها الفدر والمكيدة والطمع وشهوة التسلط والسلطان . أن أعظم اسباب نجاح هذه القصيدة وذيوها هي أنها صادقة كل الصدق في خلق صورة حية نابضة لادق مشاعر قائلها . طموحه ومعاناته وفشله . كما أنها كذلك صورة حية رنانة من الحكمة التي تذكرنا بمجد أبي الطيب المتنبى وسوداوية أبي العلاء المعري وإنما هي عمل من الاعمال النادرة التي يقيض لها أن تكون شاهدا يطفح بالمرارة على قسوة العصر الذي قيلت فيه وذاتية الشاعر واضحة منذ الافتتاحية المباشرة التي توشك أن تزج بالقصيدة في غرض تقليدي من أغراض الشعر وهو الفخر حين يقول :

أصالة الراى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى عن العطل
مجدى أخيرا ومجدى أولا شرع والشمس راد الضحى كالشمس في الطفل

المباشرة التي تسود التعبير لا تنفرنا ولا تبعدنا عن التعاطف مع القصيدة لأنها صيغت في بناء متماسك يذكرنا بافتتاحيات المتنبى الجهرية وصوره الشعرية القوية .

ويبدو أن الشاعر الذي عانى القسوة والكراهية والحسد من جانب المحيطين به قد شعر بضعفه واحباط مساعيه ولأنه شاعر طموح قوى النفس بعيد الهمة لا يستسلم ولا ييأس فقد أثر أن يرفع في وجهه فشله بسيف الفخر والثقة في النفس . ولكن هذا الصوت المتفاخر الشامخ لا يلبث أن يهوى فجأة الى هاوية الاحساس بالغربة والوحشة والفقد وأن كان في تشبيه نفسه بالسيف الذي يخلو من العيب وكانما يشير الى أن حاله التي هو عليها بما فيها من شقاء لا تعزى لعيب فيه وإنما لخلل في زمانه . لقد رسم في بداية القصيدة صورة درامية لازمة نفس عالية الهمة . نفس بطل لا يقبل الهزيمة ولا الفشل ، فهو رجل ماجد ولكن الازمة تمسك بخناقته فهو غريب فقير وحيد كل شيء في حياته يعانى من غياب ما يكفيه ويسعده بينما هو رجل همه في طلب المعالى أن هدفه واضح ٥٥

أريد بسطة كف استعين بهاعلى قضاء حقوق للعلى قبلى

هو يريد أن يقوم بالتزاماته تجاه المجد فعليه واجبات أساسية للعلا لابد من القيام بها ولكن الدهر يعاند ويعكس له الآمال ويضطره

الى التراجع وللرضى من الغنينة بالاياب . ان شخصية الشاعر تتبدى قوية حازمة مصرة على تحقيق هدفها في الحياة ورغم قوة مايعانيه ألا أنه عازم على المضى وعدم الاستكانة الى حيث ترغبه الاقدار التى يسميها الدهر .
فها هو يأخذ بزمام راحلته جسورا مقداما الى حيث يهوى وماذا يفعل وقد كتب عليه أن يكون حبه في موضع به أعداؤه ويا له من اختيار صعب أن يكون الحب في مكان واحد مع البغض أو تكون العداوة حارسا للحب ها هو يخاطب جواده :

فسر بنا في ذمام الليل مهتديا بنفحة الطيب تهدينا الى الجسل
فالحب حيث العدى والاسد رابضة نصالها بيماء الفنجج والسكر

والحقيقة أن الشاعر قد أدخل حديث الحب فجأة وهو يسرع براحلته الى طلب المعالي كحيلة شعرية للتخفيف من صرامة الاسترسال في حديث الجد وقعقعة السلاح فرأى أن يروح عن متلقى شعره بهذه الفكاهة الحلوة التى تطيب بها النفوس والتى كان الشعراء القدامى يصدرون بها قصائدهم طلبا لاقبال الأذان على شعرهم ولا شك أن هذا الاحساس يؤكد رهافة مشاعر الطغرائى وبراعته فى صياغة عمله الفنى .
ولكن ذلك الجزء من القصيدة لا يعد مجرد فاصل رقيق من المشاعر الناعمة للتخفيف من احتدام الازمة الإنسانية التى تحاصره وانها هى جزء رمزى يشير الى أن هدف الشاعر وأمانيه وأحلامه تتبدى له غراما تولع به النفس وعشتا تسعد به القلوب وتبذل من أجله التضحيات ويسهل من أجله الصعب . وإذا كان الشاعر قد كرس الجزء الاول من القصيدة لكشف مأساته ومعاناته كبطل تراجيدى يدخل في صراع مرير مع الواقع من أجل تحقيق أحلامه فقد كرس الجزء الاخير لما يمكن أن نطلق عليه شعر الحكمة . ويا لها من حكمة بالغة القسوة تلك التى تمخضت منها تجاربه الاليمة . لقد حاول الشاعر أن يضع نتائج تجاربه فى قاعدة شعرية عامة تقف على حدود الفلسفة وعلى أبواب الشعر متخذة من النعيم صورتها النهائية . وهذه الابيات تبدأ بالبيت الذى يتلوه :

حب السلامة يثنى هم صاحبه عن المعالى ويفرى المبرء بالكل

هذه الابيات تحتفل بها كتب الادب كجزء عزيز من ادب الحكمة . ولا شك أن هذا البيت يقف كموعظة بليغة صادقة فى التعبير عن موقف من الحياة يحكم عليها بالسلبية والموت . فلا شك أن ايثار السلامة هو الذى يقود الى الجهود والسلبية فى الحياة وقد يكون سببا قويا فى حرماننا من الحياة نفسها . ثم يحدد الشاعر طريق الكرامة والمجد

في الرحلة والترحال والحركة الدائمة وهكذا كانت حياته وهو يعلى بصورة قوية من دوافع الامل في الحياة . فهذا الامل هو خيط الفجر الذي يؤذن بانتهاء الليل

اعلل النفس بالامسال ارقبهما اضيّق العيش لولا نسمة الامل

ان أبيات هذا الجزء من القصيدة تمزج الشكوى بالحكمة بالفخر بالموعظة في اطار من ادانة العصر متبها الحظ . هذه الصيغة الغامضة للاقدار والظروف المحيطة بانه هو الذي ينتكر له ويمشي في ركاب من هم اقل منه في كل شيء .

تقدمتني اناس كان شوطهم وراء خطوى اذ امشي على مهل

ولاول مرة في القصيدة يلوم الشاعر نفسه وان كان هذا اللوم يأتي في صيغة عامة تصلح لكل امرئ يعاتب نفسه في لحظة الفشل :

هذا جزاء امرئ اقرانه درجوا من قبله فتمنى فسحة الاجل

والشاعر يلجأ الى نوع من الاقيسة المنطقية الهشة التي ندرك من اول وهلة تهافتها ولكنها مجرد عزاء غير مؤكد لهم نفس أصابها الفشل . واذا كانت تجربة الشاعر قد حركت روحه الى يتابع الحكمة في بعض الابيات فارتوت منها وحاولت أن تقرينا من منهلها العذب فان تجربة الشاعر أيضا قد دفعت نفسه المفعمة بالمرارة الى نوع من القسوة التي تفتقد الى الانصاف في الحكم على الحياة والاحياء . واذا كان الشاعر قد حاول أن يخلص من ذاته الى اطار عام من التواعد العامة والحكم الجلية فان ذاته قد عادت لتسيطر بسوداوية قاتمة على صورة العالم المحيط به . هذا العالم الذي رأى فيه الشاعر عدوا مأكرا لثيما دائم الغدر والكذب ورأى في الناس صورة من الشر والقسوة والبغض فانفتحت في هذا العالم وفي هؤلاء الناس الوفاء والحب والتكافل والثقة حتى لنجد الشاعر يدلي بأحكامه اليائسة في وجه الجميع فيتهم الاقربين ويشك في الجميع ولا يجد سنداً له الا في قوته الذاتية وحدها .

ها هو يجانب الانصاف والموضوعية ويستسلم للغضب وعدم الثقة فيقول :

عدى عدوك من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحداهما من لا يعول في الدنيا على رجل

وتدخل القصيدة من هذا المنعطف الى اليأس فتد اسودت الدنيا في وجهه وها هو يرى أن حسن الظن بالناس نوع من العجز ويعلن غياب

الوفاء وتفشى الغدر ومخالفة القول للعمل . وكان لابد أن يقوده عسدم الموضوعية والغضب والسخط والتبرم الى أن يشعر باليأس يطوق خطواته . ذلك لانه بعد أن أحكم الحصار حول اعناق الناس فكأنه فى الواقع قد أحكمها حول عنقه هو نفسه أولا . هنا يواجه الشاعر حياته خائرا القوى يائسا . لا قبل له بها هو مقبل عليه . لقد ضاع الامل من الشاعر فثقل عليه كل شيء .

فيم اعتراضك لج البحر تركبه وانت تكفيك منه مصة الوشمل

بدأ الشاعر يحدث نفسه بالامتناع بالقليل بدلا من الطمع فى الكثير فالغناصة لا تحتاج الى الانصار الذين يخذلون ولا الى الاعوان الذين يغدرون وهما هو يصل الى قمة الدراما انها التخلي عن الحياة ذاتها :

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها فهل سمعت بظل غير منتقل

ان القصيدة تتطور بطريقة درامية من موقف الازمة الى موقف الرزيمة لتصور محنة شاعر التف حول ذاته وسيطر عليه طموحه ورأى فى هذا العالم كله اعداء له . انه بطل تراجيدى يواجه قدرا صنعه بنفسه ليسقط فى النهاية ضحية له . واذا كانت القصيدة تحفل بقيم ايجابية كثيرة فى مقدمتها اعلاء شأن الامل فان موقف الشاعر الاساسى كان من أعظم سلبياتها هذا الموقف هو رؤية العالم من زاوية خاصة جدا رؤية تقول اما أن يكون هذا العالم فى خدمتى أو فليذهب الى الجحيم ، ولا نستطيع بالطبع أن نصل الى حكم قاس على هذا الشاعر وحده الذى قتله طموحه لأن هذا الحكم ينبغي أن يشمل العصر الذى عاش فيه وغرس فى نفسه هذه البذور المريرة التى تجلت فى هذه الحكمة القاسية التى حدثتنا عنها قصيدته .

ان شخصية الصفرائى مثل شخصية المتنبى . مأساوية فى جوهرها لانها وجدت نفسها محاصرة بين واقع لا تريده وآمال لا تقدر عليها ، ويا له من مصير فاجع مشترك بين المتنبى والطفرائى .

أبو الهول

لامير الشعراء احمد شوقي

القصيدة

أبا الهول : طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر
أيالة الدهر : لا الدهر شيب ولا أنت جاوزت حد الصغر
الأم ركوبك متن الرما ل لطي الاصيل وجوب السحر
تسافر منتقلا في القرون ن فأيا ن تلقى غبار السفر
أبينك مهد وبين الجبال ل تزولان في الموعد المنتظر

أبا الهول : ماذا وراء البقا
مجبت للقمان في حرصه
وشكوى لبيد لطول الحيا
ولو وجدت فيك يا ابن الصفا
فان الحياة تقل الحديـ
أبا الهول ما أنت في المعضـ
تحيرت البعد ماذا تكون
فكنت لهم صورة العنـ
وسرك في حجبـه كلها
وما راعهم غير رأس الرجبـ
ولو صوروا من نواحي الطبـ
فيارب وجه كصافي النـ
أبا الهول ويحك لا يستـ
تهزأت دهرًا بديك الصبح
أسال البياض وسل السواد
فعدت كأنك ذو المحبسـ
كأن الرمال على جانبيـ
كأنك فيها لواء القضا
كأنك صاحب رمل يرى

أبا الهول أنت نديم الزمان
بسطت ذراعيك من آدم
ن نجى الأوان سمر العصر
ووليت وجهك شطر الزمر

ل وتوفى على عالم يحتضر
د وأخرى مشيعة من غير
وخبير فقد يؤتمس بالخبر
الى الشمس معتزيا والقمر
ن رفيع البنساء جليل الأسر
يؤسس في الأرض للفاشرين ويغرس للآخرين الثمر
وراعك ما راع من خيل قمبيز وترمى سنانبكها بالشر
د وآونة بالقنا المشتجر
قشيب الملا في الشباب النضر
فلم يعد الملك عمر الزهر
د وكيف اذل بمصر القصر
وساقوا الخلائق سوق الحمر
د من الفاتحين كريم النفر
ج وفسل الجموع وثل السرر
ن فان الزمان يقيم الصعر
وحين وهى سلكها وانتثر
ج اذا أخذ الطرف فيها انحسر
ل كما تتلقى اصول الشجر
تخطى الملوك اليها السمر
وتشرق في الارض منها الحجر
ن وبعض العقائد نير عسر
ر ويرجى النعيم وتخفى سقر
ولو أخذته المدى ما شعر
وأن صاغ احد فيه الدرر
ونور العصى والوصايا الفرر
ء ومريم تجمع ذيل الخمر
ب ويزجى الكتاب ويحدو السرر
ل ودنيا الملوك وأخرى عمر
ر وأخذ المقوقس عهد الفجر
ل بصبح الهداية لمه سفر
ن كما الفت بالولاء الأسر
ل كان وفاؤك احدى العبر
ف . كئابة لا تريم الخمر
وكيف يعود الرميم النخر
ر وترمى بأخرى فضاء النهر
وسمر القنا والخميس الدسر
وعهد الفنون الجليل الخطر
أجد محاسنها ما اندسر
د اذا الارض دارت به لم تدر
ل بأن الفروع اقتدت بالسير
وسبقنا لها الفسالى المدخر

تطل على عالم يستهل
فعمين الى من بدأ للوجو
محدث فمقد يهتدى بالحديث
الم تبيل فرعون في مزه
ظليل الحضارة في الاولين
جوارف بالنار تغزو البلاد
وابصرت اسكندرا في الملا
تبتهج في مصر اكليله
وشاهدت قيصر كيف استبد
وكيف تجبر أعوانه
وكيف ابتلوا بقنايل العدي
رمى تاج قيصر رمى الزجا
فدع كل طاغية للزمان
رايت الديانات في نظمها
تشاد البيوت لها كالبروج
تلقى أساسا وشم الجبال
وايزيس خلف مقاصيرها
تضىء على صفحات السماء
وآبىس في نيره العالو
تسأس به معضلات الامو
ولا يشعر القوم الا به
يقول أبو المسك عبدا له
وأنست موسى وتابوته
وعيسى يلهم رداء الحيا
وعمره يسوق بهصر الصحا
فكيف رايت الهدى والضلال
ونبذ المقوقس عهد الفجو
وتبديله ظلمات الضلال
وتأليفه القبط والمسلمين
أبا الهول لو لم تكن آية
أطلت على الهرمين الوقوف
ترجسى لبانيهما عودة
تجوس بعين خلال الديا
تسروم بمنفيس بيض الطبيا
ومهد العلوم الخطير الجلال
فلا تسبطين سوى قرية
تكاد لاغراقها في الجود
فهل من يبلغ عنا الاصول
وأنا خطبنا حسان العلا

ر وانا ركبنا غمار الامور
بكل مبين شديد اللدا
تطالب بالحسق في امة
ولم تفتخر بأسا طيلها
فلم يبق غسرك من لم يخف
تحرك ابا الهول هذا الزما

ر وانا نزلنا الى المؤتمر
د وكل اريب بعيد النظر
جى دمهها دونه وانتشر
ولكن بدستورها تفتخر
ولم يبق غسرك من لم يطر
ن تحرك ما فيه حتى الحجر

وعلى لسان ابي الهول جاءت هذه الايات :

نجسى ابي الهول آن الاوان
خبأت لتومك ما يستترو
معندنى الملوک باعياها
محا ظلمة الیاس صبح الرجا

ن ودان الزمان ولان القدر
ن ولا يخبا العذب مثل الحجر
وعندى التوايت منها الأثر
ء وهذا هو الفلق المنتظر

شاعر هذه الخريدة هو أمير الشعراء أحمد شوقي الذي شغل الناس في هذا العصر الحديث كما شغلهم أبو الطيب المتنبي في القرن الرابع الهجري والقرون التالية له . ذلك لان كلا الشاعرين قد بهر الناس بهذا الشعر الرفيع الذي جعل من اللغة مادة سحرية تنفذ الى الوجدان الراكد فتحركه وتدفعه الى السمو باحلامه . الى عنان السماء . ومهما يكن من أمر المقارنة بين المتنبي وشوقي وتقديم كل منهما على الآخر فان الأمر الذي لا يمارى فيه أحد أن شوقي والمتنبي عملاقان شاهقان أوتى كل منهما موهبة كبيرة على صياغة رؤاه بأقصى مهارة تقدر عليها اللغة وتستجيب لها وإذا كان حظ المتنبي قد قضى له الحرمان والشقاء والاحباط فكان الأقدار قد أرادت التكثير عن ظلمها للمتنبي أو ظلم المتنبي لنفسه فنهنت شوقي الرفعة والرخاء والقرب من الملوك مشمولاً بالرضى ولعل هذا أن يقضى قضاء حاسماً على فكرة شاعت طويلاً بين بعض الأدباء باقامة علاقة متعسفة بين الحرمان والابداع الرفيع . فها هو شوقي يبدع بلا حرمان وها هو المتنبي يبدع وسط حرمانه أن المعول دائماً أنها هو على الموهبة والارادة الصادقة التي تقف وراء هذه الموهبة .

ولد أحمد شوقي في ١٦ أكتوبر عام ١٨٧٠ لأسرة اختلطت فيها الدماء المصرية التركية اليونانية وكان رب هذه الأسرة يعمل في معيشة الخديوى والتحق بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٥ وبقي بها حتى عام ١٨٨٩ وفى عام ١٨٩٠ عينه الخديوى توفيق في قلم السكرتارية الخديوية بقسم الترجمة حتى عام ١٨٩٣ حيث سافر في بعثة على نفقة الخديوى توفيق الى فرنسا ليكمل دراسته فى الحقوق تضاها بين مونبليه وباريس وزار خلالها إنجلترا والجزائر وكثرا من قرى ومدن الجنوب الفرنسى وفى عام ١٨٩٦ أوفدته الحكومة المصرية ممثلاً لها في

مؤتمر المستشرقين في جنيف حيث التقى قصيدته الطويلة « كبار الحوادث في وادي النيل » ثم سافر من هناك في رحلة إلى بلجيكا وقد نشر الجزء الأول من ديوانه الشوقيات عام ١٩٠٠ نفى إلى أسبانيا في الفترة من ١٩١٥ حتى ١٩١٩ وفي عام ١٩٢٤ عين عضواً بمجلس الشيوخ بابعته وفود الدول العربية في ٢٩ أبريل عام ١٩٢٧ أميراً للشعراء وكان الاحتفال بتنصيبه أميراً للشعراء قد أقيم في دار الأوبرا بالقاهرة ولقي ربه في الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٣٢ عن اثنتين وستين سنة .

تعتبر الشوقيات هي العمل الشعري الرئيسي لأحمد شوقي وهي ديوان من أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول رؤيته السياسية والتاريخية والاجتماعية وفي هذا الجزء الهام يتضح اهتمام شوقي الكبير بأحداث عصره أما الجزء الثاني فيضم قصائده في الوصف والنسيب وبعض الأغراض الأخرى ويكاد الجزء الثالث أن يكون مكرساً كله لشعر الرثاء وقد طبع الجزء الرابع بعد وفاته ويشتمل على قصائد في السياسة والتاريخ وبعض القصائد التي أطلق عليها جامعها اسم الخصوصيات وكذلك بعض الحكايات الشعرية تدور على لسان الحيوانات « شبيهة بقصص » كليلة ودمنة » وقصص لافونتين في اللغة الفرنسية . وقد صدر عام ١٩٦١ و ١٩٦٢ عن الهيئة العامة للكتاب ما عرف باسم الشوقيات المجهولة في جزأين جمعها وعلق عليها الدكتور محمد صبري السربوني .

كان شوقي رائداً في مجال المسرح الشعري فهو الذي أسس لهذا الفن مدرسة هامة في الشعر العربي المعاصر . وقد كتب شوقي عدداً من المسرحيات الشعرية هي : على بك الكبير ومصرع كليوباتره ومجنون ليلى وقمبير وعنترة وأميرة الأندلس . والست هدى وهي ملهة واقعية .

يقول أحمد شوقي في مقدمة الشوقيات :

« انى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أحد أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء ثم يتحدث عن وظيفة الشعر فيقول :

على أن الشعر ليس من حاجات العمران المادي الذي تتوقف عليه سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الأدبي الذي تسام النفس عنده الحقيقة المجسدة والمادة المجردة وتميل في بعض أوقاتها إلى التنقل بشعورها من عالم إلى آخر ومن فضاء إلى سماء ولعل هذه هي الحكمة في كون الشعراء قليلاً عديدهم في كل زمان ومكان لا تعطى الأمم منهم إلا بقدر حاجتها اليهم » .

وتد تعرض شوقي لكثير من النقد وهذا النقد نفسه كان يقدر قيمة شوقي كشاعر بلغ بالاطار التقليدى القمة فى الصياغة والاداء واسفرت الحملات النقدية بالطبع عن تطور حتمى فى مسيرة الشعر وكانت مدرسة الديوان العقاد والمازنى من أشد النقاد الذين تعرضوا لشوقي بالنقد الذى تطرف الى التجريح فى بعض الاحيان . واذا كان هذا النقد قد صحح بعض المعايير الفنية لدى الاجيال الطالعة فانه فى نفس الوقت لم يهدم هذا الصرح الفنى العظيم الذى شاده شوقي بعبقريته النادرة واذا كان شوقي يتعرض للنقد فما ذلك الا لافساح الطريق امام ابداع معاصر يلائم روح العصر حتى يتمكن الشعر من التخلص من التقليد الاعمى والمسايرة الفنية التى درج عليها انصاف الموهوبين .

تصيدة أبى الهول التى نحن بصددھا واحدة من روائع أمير الشعراء التى اکتملت فیھا عناصر شاعرية هذا الشاعر العظيم ففیھا تتجلى هذه الرؤیا التاريخية الشاسعة الاطراف اتساعا وعمقا مما يدل على ثقافة الشاعر من ناحية وارتباطه الوجدانى بهجوم وطنه من ناحية أخرى . وفیھا هذا الجنوح الى تأمل رحلة الزمان تأملا ذا مستویین المستوی الاول هو المظهر الخارجى التاريخى وذلك من خلال سرد الاحداث وتتبع ظهور الممالك واختفائها والمستوى الثانى هو المستوى الميتافيزيقى وهو الذى يعلو على الحدث المباشر لحركة الحياة من الميلاد الى الموت ومن القوة الى الضعف . كل هذا من خلال هذا التمثال الباهر الذى يقوم شاخصا الى الصحراء وكأنه يشهد شهادة صامتة ساخرة على ما يحدث وما یرجى . ما يقوم وما یسقط .

الشاعر يبدأ بالاستفهام الذى ینبئ عن الدهشة والاعجاب والحريرة وكأن الشاعر بهذا یسلکھ فی الاحیاء وكيف لا وهو یحمل وجه انسان وجسد أسد أنه یشير بتكوينه الى أعظم ما فی الحياة - العتل وذلك بالمظهر الانسانى الذى یتمثل فی وجهه والقوة التى یتمثل فی جسده وكأن أبى الهول بمظهره المجید الخالد یؤكد أن الطريق الى المجد والخلود انما یكون عن طریق واحد هو مزج القوة بالحكمة وهل قالت الفلاسفة والشعر والعلوم والفنون والحضارة أكثر من هذا ؟ وكما قال الشاعر الانجليزى شیلی انما ینقص الاقوياء الحكمة وینقص الحكماء القوة - شوقي یسلک أبى الهول فی عداد الاحیاء ولكنه یتساءل عن طول الرحلة فی قلب الزمان وهذا المفتاح لیس أكثر من دهشة ومدخل الى التأمل العظيم فیما وراء هذا البقاء فی الزمان .

أبى الهول ماذا وراء البقاء اذا ما تطاول غیر الضجر

ویدخل الشاعر من دهشة البقاء فی الزمان الى دهشة التناقض الانسانى - فما هو لقمان الحكيم یحرص على طول عمره الذى ارتبط

بأعمار سبعة فسور يهلك بعد هلاك آخرها وكان آخرها هو لبد الذى كان لقمان أشد حرصا عليه من الفسور الأخرى وعلى الجانب الأخر من هذا الحرص نرى لبيد بن ربيعة يشكو طول عمره حيث يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولكن شوقى الذى بدأ بالايهام بأن الهول حى وذلك بالحديث معه عن الضجر بسفر عن وجه الحقيقة يؤكد لابي الهول أن خلو من الحياة هو الذى منحه البقاء . لان الحياة تغل الحديد وتبلى الحجر . اذا لبسته . وها هو يؤكد المعنى الذى ترمز له هيئة أبى الهول . ورغم أنه يصور حيرة الناس من بدو وحضر فى تفسير لغز هذا المائل المهيب فى الصحراء الا أنه يعبر فى الواقع عن حيرته هو نفسه أنه يتساءل عن الاسرار المحجبة وها هو يعود الى التأمل بعد التساؤل فى الوضع الإنسانى كما حدث بالضبط فى مقدمة القصيدة . بدأ بالتساؤل ثم فنى بالتأمل وها هو يرد على دهشة الناس وحيرتهم بالدخول الى أعماق البشر . لماذا ينكرون هذه الهيئة الحيوانية الإنسانية اليسوا هم أيضا كذلك : لو أن أجسادهم أخذت شكل صفاتهم لجاءت صورهم هكذا فى صورة الإنسان الحيوان فلماذا يندهشون . الا يحسون بالحيوانية بداخلهم فكأنه يوحى بأن أبى الهول ليس الا تفسيرا تشريحيًا لمفهوم الإنسان تفسير تشريحي يتضمن اجابة أخلاقية عن الوضع الإنسانى فى نفس الوقت :

فيا رب وجه كصافى النمر تشابهه حامله والنمر

لاعجب اذن أن تجيء يا أبى الهول على هذا النحو الغريب . فانت لست الا أنسانًا ظهر على جسده ما كمن فى باطنه من صفات .

وها هو الشاعر أحمد شوقى يلتبس فى خياله الشعرى مسددا على تفسير هذه الخريشات الواضحة فى وجه أبى الهول مستدعيا فى ذهنه أبى العلاء المعرى وعراف الرمال وما شاعت له ظنونه أن تستدعى لمعرفة لغز هذه الحقيقة الكامنة فى هذا الصخر ثم يحاول بعد أن أعطاه صفة العراف أو المؤرخ أو الشاهد على كل العصور أن ينطق بما يرى وبما رأى وأن يفرض بالطبع رؤيته التاريخية مستخلصا من هذه الرؤية العظة الكبرى وهى فى الواقع هدف القصيدة فقد كان شوقى شاعرا وطنيا أخلاقيا كبيرا وتبدأ المسيرة الشعرية التاريخية بفرعون عزيزا فى ملكه ينتسب الى الشمس والقمر وها هو تميز والاسكندر وجنودهما ثم يأتى من بعد ذلك قيصر روما عجل أبيس — ايزيس . وتمضى مسيرة الغزاة بمصر الى أن يتوقف الشاعر وقفته الكبرى عند الفتح الإسلامى لمصر .

هنا يرى شوقي في الاسلام نهاية لظلام الفجور وصباحا للهداية
يطلع تحت رايات عمرو بن العاص . ولا ينسى الشاعر بعد هذه
الوقوف مع الفتح الاسلامي لا ينسى دليله التاريخي ابا الهول فيناشده
من جديد :

اطلت على الهرمين الوقوف ككلا كلة لا تريم الحفر
ترجى لبانيهما عودة وكيف يعو الرميم النحر

اذن فابو الهول يتقف منتظرا عودة الفراعنة ولكن شوقي يستبعد
هذه العودة هل احس الشاعر بلوعة التمثال وكأنه غريب في الزمان يهاجر
الى زمنه الاول محلقا بحثا عن المجد والرخاء والقوة — لا شك ان هاجس
القوة كان يحتل في نفس الشاعر مكانا واضحا . فمصر كانت تبحث عن
ذاتها في ذلك الوقت ومن الطبيعي ان يقوم الشاعر بهذا التشریح التاريخي
مركزا على قيمتين أساسيتين هما : القوة — والعقل وكأنه بهذا يشير
الى وطنه موضحا من خلال جلال التاريخ ان طريق النهوض والبعث
لا بد له من هاتين القيمتين .

ولعل الحسرة تتبدى له وهو ينظر الى عاصمة المجد القديمة
ممفيس وقد انحطت الى قرية اجد ما فيها ما قد اندثر . وما أروع هذه
الصورة الباهرة للجمود . جمود هذه القرية التي كانت في الماضي عاصمة
للحضارة الفرعونية .

تكاد لا غرائها في الجمود اذا دارت الارض بهما لم تدرك

ثم يدعو الشاعر الى النهضة والاقتداء بالاجداد :

نهـل من يبلغ عنا الاصول بان الفروع اقتصدت بالسـير

هو في الواقع ينهي قصيدته بنوع من الرضى عن امته وعن خطواتها
الشابة على مدارج الحضارة المعاصرة . وقد أقيمت هذه القصيدة في
حفل افتتاح مسرح الازبكية « المسرح القومي حاليا وكان تمثال لابي الهول
قد اقيم في فناء هذا المسرح فلما اتم الصوت الاول الذي القى القصيدة
الابيات التي قالها شوقي مسائلا ابي الهول نهض صوت آخر ليعلن
ان الصبح طلع ثم انشق صدر ابي الهول عن فتى وفتاة مثلا امامه وانشدا
نشيدا مطلعـه :

اليوم نسود بوادينـا ونعيد محاسن ماضينا

تؤكد هذه القصيدة اول ما تؤكد ثقافة شوقي الواسعة ووطنيته
وغيرته على بلاده وهي تعطى صورة حية عامرة بالاحساس لهذه

العبقرية الشعرية التي تالقت ولم تخب أبدا أن البحر المتقارب يستجيب لهذا السرد التاريخي الذي حاول الشاعر أن يلتقطه من العصور المختلفة ولكن هذا البحر نفسه يتوتر ويصعد في لحظات التأمل الميتافيزيقية ليلائم اللحظة النفسية التي يمر بها الشاعر . ان اللغة تكتسب مرونتها وقوتها من مهارة الموهبة التي تستخدمها وقد كان شوقي عبقريا حقا في سقل ديباجته الشعرية حتى صعد الشعر على يديه الى ذروة عالية . واذا كان شوقي قد أنشد الانسانية هذه القصائد الباقية فان هذه القصائد نفسها لن تكف عن اعطاء أبهى الصور وأزهارها لشاعرية أمير الشعراء أحمد شوقي .

الخيريف

للشاعر الدكتور ابراهيم ناجي

القصيد

وجفوني وعلى الأفق سحابه
كلما شاكرتها تندى كآبسه
وبكى مستعطفا مما أصابه
ما على الأيام لو كان أجابه

من سلو أو بعد يرتضيه
كل فجر طالع ذكرنيـه
ثم ناجيتك في كل شبيهه
اين في الدنيا مكان لست فيه

رحلة نحو المغاني الآخر
صورة اروع ما في الصور
نفحة تحمل طيب السحر
وثنى الركب عنان السفر

لحت لى تحمل عمرا وريبعسا
اجمل الاحلام ما ولى سريعسا
خلى ادفعه عنك دموعسا
ان تكن بعث فاني لن أبيعسا

سكبوا لى السهد في ذاك الشراب
صفرة الكأس واوهام الحباب
تنجلي النعماء من ذاك السراب
عرسها الضاحك احزان الضباب

انت من حبي ومن وجدى طليق
رب حر وهو في قيد وثيق
وانا ضقت بأحجار الطريق
وغريق مستعين بغريق

البطيشات المملات الطوال
خفة الموت واثقال الجبال

يا حبيبي غيمة في خاطري
غفر الله لها ما صنعت
صرخ القفر لها منتحبا
فأصم الغيث عنه اذنته

كثر الهجر على القلب فهل
أنت فجر من جمال وصبا
كيف جانبك أبغى سلوة
ايا الساكن عيني ودمي

عند أزمع ركب العمر
ظهرت تجلوك كف القدر
نترأى في الشباب العطر
وقف العمر لها معتذرا

عندما أقتريت الدنيا جميعا
ان يكن حلما تولى مسرعا
ان يكن ما كان دنيا يقتضى
قد شربناه عزيزا غالبا

يا ندأى الحب سمار الهوى
ارقنى أجرع السم وبى
كلما تقبل أيام المنى
وترى أيامى الحيرى على

لم اقيدك بشيء في الهوى
الهوى الخالص قيد وحده
مزقت كفك أثسواك الهوى
كم ظمى بظمى يرتوى

يالالى العمر ما سر اللبالي
مسرعات مبطئات ولها

عائرات الحظ شوهاه الظلال
للنبايا بسلاحنة الملال

جفت الروضة من بعد النديم
وظلال قاتمات وغيوم
من هوى حى على الذكرى يقوم
فريغى سربه بين النجوم

وتولاهما سهوم ووجوم
كل حسن بعد ليلاي ديم
آه لو أعرف ما طعم النعيم
أبدى النار موصول الجحيم

غير التمويه رايبا لك فيا
سرى الغافى ومعناى الخفيا
قد سقاها الحزن دمعيا أديا
أنت دمعيا غائما فى مقاتليا

ما ترى فيه انهيار العمر ؟
يتلاشى فى خضم القدر ؟
ورمت من عرشها المنحدر
قبل أن تسقط خلف النهر

وعذابى بين حل وسفر
راحلة ترجى وبال يستقر
ما عليه لوالى السلوى عبر
واتى الليل عليه فانفجر

أمل اللقيا فما اتعس يومى
من زمان مريبى لم تك همى
لك كالطفل الى رحمة أم
اغتدى مستشرقا أفاق نجم

كل ما فيك من الاسرار يغمرى
فتنة تعصف من لفتة نحرى
زورق يسبح فى موجة عطر
واصل ما بين عينيك وعمرى

أترى تذكر اذ جزنا المدينة ؟
حرما يصلى تلمست جبينه

كاسفات البال عرجاء المنى
عجبا للعمى يمضى مسرعا

يا قمارى الروض فى أيك الهوى
حل بالايك خريف منكور
ماتت الروضة الا طائفا
فاذا انكر ما حل بهما

شاهت الدنيا وجوها ورؤى
يا عذارى الحسن فى ظل الصبا
يا نعيم العيش فى ظل الرضا
أنكر الجنة قلب ضجر

ظالم ما موهت بالضحك فما
كلما تنظر فى عينى ترى
وترى فى عمق روحى زهرة
ويراه الناس طيلا وترى

يا مؤادى ما ترى هذا الغروب
ما ترى فيه غريبا ذا شحوب
ما تراها اتادت قبل المغيب
لفتة الحسرة للشبط القريب

يا مؤادى قاتل الله الضجر
ما ترى قنطرة من بعدهما
ذلك الجرح وما أفدحه
قد طواه اليوم فى بردته

مر يومى فارغا منك ومن
أنت يومى وغدى أنت ومما
آه كم أفدو صغيرا حاجتى
ولكم أكبر بالحسب الى أن

أى سر فيك أنى لست أدري
خطر ينساب من مفترئفسر
قدر ينسج من خصلة شمس
فى عباب غامض التيار يجرى

ذات ليل والدجى يغمرنا
كلما روعت من نار شمسج

بيد شفاقة مثل الندى الرطب تعيد النار بردا وسكينه
أيها الأسى لنارى هذه ما الذى تصنع بالنار الدفينه

أخيالا كان هذا كله ذلك الجسر الذى كنا عليه
والمصابيح التى فى جانبيه ذلك النيل وما فى شاطئيه
وشمع طوفت فى مائه وظلال رسبت فى ضفئيه
وحبيب وادع فى ساعدى وعود نلتها من شفتيه

رب لحن قص فى خاطرنا قصة الحادى الذى غنى سواده
وكان الصمت منه وأحسة هيات من عشبها الرطب وساده
ها أناعدت الى حيث التقينا فى مكان رفرفت فيه السعادة
وبه تد رفرف الصمت علينا ان فى صمت المحبين عبادة

رفرف الصمت ولكن أقبلت من أقاصى السهل أصداء بعيده
تتهادى فى عباب ساحر مرسل للشط أمواجها مديده
كم نداء خافت مبتعد تشتهى أذن الهوى أن تستعيد
عاد منسابا الى اعماقها هامسا فيها بأصداء جديده

رفرف الصمت ولكن هاهنا كل ما فيك من الحسن يغنى
آه كم من وتر نام على صدر عود نوم غاف مطمئن
وبه شتى لحون من أسس وحنين وأنين وتمنى
رقد العاصف فيه وانطوت مهجة العود على صمت من

هذه الدنيا هجير كلها أين فى الرمضاء ظل من ظلالك
ربما تزخر بالحسن وما فى الدمى مهما غلت سر جمالك
ربما تزخر بالنور وكم من ضياء وهو من غيرك حالك
لو جرت فى خاطرى أقصى المنى لتهنيت خيالا من خيالك

أنا ان ضاقت بى الدنيا أمىء لثوان رجبة قد وسععتنا
انما الدنيا عباب ضمنا وشطوط من حظوظ فرقتنا
ولقد أطفوا عليه قلقتنا غارقا فى لحظة قد جمعتنا
كلما تترى المعانى اجتلى خلف معناها لأسرارك معنى

ما الذى صبك صبا فى الفؤاد ما الذى يعصف عصفا بالرشاد
ما الذى يخلقنا من عدم ساهر العينين موصول السهاد
ما الذى صبك صبا فى الفؤاد ما الذى يعصف عصفا بالرشاد

كم حبيب بعددت صباؤه فى نسيج خالدا رغم البلى
ما الذى فى خصلة من شعره عبث الدهر وما يعبث به
ما الذى فى خصلة من شعره ما الذى فى خطه أو كتبه

ما الذى فى اثر خلفه من افائين الهوى او عجبسه

عقد الحب عليه موعده
ان نأى عنه وتبكى المائدة
عائد هس لها أو عائده
حين تمضى افراق لعده

ما الذى فى مجلس يالفه
ربما يبكى أسى كرسية
ربما تحسبها هشت اذا
ربما تحسبها تسالنا

وتوارت عن عيون الرقباء
واستوت موحشة تحت السماء
كفك الحلوة فى كل مساء
كل ما تملك كف من سخاء

كم أعدت لك سترا فى الخفاء
كم أعدت نفسها وانتظرت
وهى لو تملك كفا صافحت
وهى لو تملك جودا بذلت

فتواثبنا له نبغى اقتطافه
عربى الجود شرقى الضيافة
وسنائه دون ورد فاضافه
وطوته اساطير الخرافة

رب كرم مده الليل لنا
وعلى خيمته أسوده
وجسد العرس على بهجته
ثم وارت يده جنيية

حملته نحو عرشينا الرياح
كان سرا مضمر فى فباح
تصر فيها كأماذ فساح
ان يظل الليل مجهول الصباح

ارج يعبق فى انحاء
كل عطر فى ثناياه سرى
يالها من حبة كانت على
نتمنى كلما طابت لنا

وتبقت صفحة قبل النوى
ذلك الوجه وذاك الهوى

يا مؤادى العمر سفر وانطوى
ما الذى يفريك بالدنيا سوى

شاعر هذه القصيدة هو الشاعر الطبيب الدكتور ابراهيم ناجى
واحد من ابرز من الممثلين لهذا التيار الشعرى الذى عرف فى الثلاثينيات
بتيار المدرسة الرومانسية او جماعة ابو لى التى أسسها الدكتور احمد
زكى ابو شادى ورأسها امير الشعراء احمد شوقى فترة قصيرة قبل
وفاته . وقد انبثقت هذه المدرسة بمفهومها للشعر من الحملة النقدية التى
قام بها عباس العقاد والمازنى فى كتابهما الهام الديون

فجاء شعر ناجى واقرانه ثورة جذرية تعبر عن طموح الذات للتعبير
عن نفسها والخروج من الاطار التقليدى الذى رفع قواعد العالمة
احمد شوقى ومدرسته . وكان من بين شعراء مدرسة أبوللو البارزين الى
جاناب الدكتور ابراهيم ناجى . على محمود طه وأبو القاسم الشاذلى
وأحمد زكى ابو شادى والتيجانى يوسف بشير ومحمود حسن اسماعيل

وحسن كامل الصيرفى وغيرهم وكان ناجى يتميز بينهم بهذا الصوت المشحون بالآلم الفياض بالعواطف الانسانية يتشجع عالمه بهذا الحزن الغامر الذى يكتنف نفسه والطبيعة من حوله . ويتوغل فى صميم علاقاته الانسانية . كان احساسه بالزمن احساسا رومانتيكيا فالزمن عنده ليس الخلود الذى يتجاوز نطاعاتنا وطموحنا ويسحقنا فى لامبالاة قاسية وانما الزمن مندمج بمفهوم الحياة فلا فصل بينهما . زمن خاص لان الحياة ذات مغزى خاص . ومن هنا فقد كانت رؤيته للزمن محدودة بأيام عمره . هذا العمر نفسه كان يجد حقيقته فى عاطفة واحدة وفى احساس واحد . هى عاطفة الحب والاحساس بالسعادة . وكان الحب شاحبا والسعادة غائبة على الدوام . ولد ابراهيم ناجى فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٩٨ فى بيئة مثقفة محبة للعلم حيث كان والده يمتلك مكتبة غنية ولقد أدرك هذا الوالد منذ البداية علامات الموهبة بلوح فى مخايل ولده فوجهه للاستفادة منها . أعلنت شاعريته عن نفسها فى وثقت مبكر فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو فى الثالثة عشرة من عمره وكان اعجابه الاول بالشريف الرضى . تخرج فى كلية الطب عام ١٩٢٣ ومارس الطب لمدة أربع وعشرين سنة . بدأت مرحلة هامة من حياة الشاعر بظهور ديوانه الاول « وراء الغمام » عام ١٩٣٤ وقد قوبل هذا الديوان كما يقول الدكتور طه وادى فى كتابه « شعر ابراهيم ناجى الموقف والاداة » - « قوبل ديوان ناجى الاول بحفاوة بالغة ولكن نقد طه حسن قد أساءه وأدمى روحه والحقيقة أن طه حسن قد ظلم الشاعر ناجى حين حكم على شعره بأحكام لفظية عامة واتهمه بأنه « شاعر هين لين » وأن شعره أشبه بموسيقى الغرفة ثم أخذ يتقل الديوان وصاحبه بالملاحظات الجزئية المتناثرة حول قصيدة واحدة هى « قلب راقصة » ولعل أبلغ ما أساء اليه هو المقارنة غير العادلة بينه وبين على محمود طه حيث تعصب له طه حسين وفضله على ناجى .

وقد أصدر ابراهيم ناجى بعد ديوانه الاول ديوانه الثانى « ليالى القاهرة » عام ١٩٤٤ ثم ديوانه الثالث « معبد الليل » عام ١٩٤٦ ثم صدر له بعد وفاته الجزء الاخير من ديوانه « الطائر الجريح » عام ١٩٥٣ . وأصدر الاستاذ حسن توفيق خلال عام ١٩٧٨ بعض القصائد المجهولة للشاعر . وبهذا نستطيع أن نقول بأن الشاعر قد أنشأ تراثا شعريا غزيرا يصل الى خمسة دواوين شعرية وقد توفى الشاعر فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٣ بعد حياة مليئة بالاحزان الخاصة والعامة وقد تنفست هذه الاحزان فى قصائد دواوينه فملأتها رثة وعذوبة وان كانت الكآبة قد سيطرت على الجزء الاكبر من هذه القصائد . ومفهومه للشعر يتمثل فى هذه الكلمات التى أوردها فى مقدمة ديوانه الثانى «ليالى القاهرة» يقول الدكتور ابراهيم ناجى « الشعر عندي هو النافذة التى أطل منها على الحياة وأشرف منها على الأبد وما وراء الأبد هو الهواء الذى أتنفسه وهو البلسم الذى داويت به نفسى عندما عز الاساء هذا هو شعري » والحقيقة أن هذا المفهوم للشعر لا يكشف الا عن مواجع وآلام الشاعر

بدلاً من الكشف عن أسرار الصنعة الفنية عنده فهو ليس معنياً بتحديد أصول نقدية للعملية الإبداعية بقدر ما هو معنى بالاناضة عن نفسه . انه تلقائى فى شعره وتلقائى فى تعبيره عن هذا الشعر ولقد كان — شعره مرآة صافية لآلامه . وأحزانه . ولا شك أنه كان ينكر أن يكون دوره هو الحديث عن الشعر بل كان الشعر همه الاوحد .

يقول الدكتور طه حسن فى محاولة للتعريف بشعر ناجى « ليس الدكتور ناجى رجلاً حسن البلاء صادق النية فى حب الشعر فحسب وإنما هو فوق هذا كله موفق الى حد بعيد فيما يحاول من ارضاء الشعر وأصحابه موفق فيما قصد اليه من المعانى موفق فيما اصطنع من الالفاظ موفق فيما اتخذ من الاساليب . معانيه جديدة تصل أحياناً الى الروعة الفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة وأساليبه جيدة أيضاً عظيمة الحظ من الصفاء لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء فى كثير من الاحيان شاعر مجيد تألفه النفس ويصبو اليه القلب ويأنس اليه قارئه أحياناً ويضطرب له سامعيه دائماً . . من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن تستمتع بما فى شعرهم من الجمال . كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون تشتت عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت عذب النفس خفيف الروح قوى الجناح شعره أشبه بما يسميه المفرجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب وتهيم بك فيما نعرف وما لا نعرف من الاجواء » ولا شك أن الرقة الصافية والهمس الرقيق الذى كانت تنضح بهما قصائد ناجى هى التى عرضته للاتهام بالضعف من قبل الدكتور طه حسين . وقد أدرك الناقد الدكتور مندور فى كتابه « فى الميزان الجديد » ان هذا الشعر الرقيق انما هو شعر انساني لا يدل على ضعف فى تكوين الشخصية يقول الدكتور مندور موضحاً نظريته الجديدة : « الهمس فى الشعر ليس معناه الضعف فالشاعر القوى هو الذى يهمس فتحس صوته خارجاً من أعماق نفسه فى نفحات حارة ولكنه غير الخطابه التى تغلب على شعرنا فتفسده اذ تبعد به عن النفس عن الصدق عن الدنو من القلوب . الهمس ليس معناه الارتجال فيتعنى الطبع فى غير جهد ولا احكام صناعة . وإنما هو احساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجد وهذا فى الغالب لا يكون من الشاعرين وعى وإنما هى غريزته المستنيرة لا تزال به حتى يقع على ما يريد . الهمس ليس معناه قصر الادب أو الشعر على المشاعر الشخصية . فالاديب الانسانى يحدثك عن أى شىء يهمس به فيثير فؤادك ولو كان موضوع حديثه ملابس لا تمت اليك بسبب » وفى ضوء هذا الراى الجديد الذى نادى به الدكتور محمد مندور يمكن إعادة تقييم شعر ابراهيم ناجى الذى لحقه ظلم ادبى شديد :

تصيدة الخريف التى نحن بصدددها هى احدى روائع ديوانه الثانى « ليلالى القاهرة » وهى تعكس صورة حزينة لآمال خائبة وحب تسولى

وذكريات تشع بالفرح حيناً وبالحزن فى أكثر الاحيان . تبدأ القصيدة
بصرخة رمزية يطلقها الجذب الموحش فى النفس طالبا الارتواء . والشاعر
يقرر من البداية أن الغيوم منعقدة فى خاطره وجفونه وعلى الافق أيضاً
فما هى هذه السحابة التى يراها الشاعر أم هى ثلاث غيمات مختلفة
أغلب الظن أن الغيوم الثلاث رموز لثلاثة معان متباينة . فالغيمة الاولى
التى يحملها فى خاطره انها هى رمز للذكرى التى يستعيد بها الشاعر
فلا تعود والغيمة التى يحملها فى جفونه هى غيمة الدموع التى تحتشد
فى عينيه باحثة عن مخرج تخفف به عن نفس الشاعر أما السحابة
المعلقة فى الافق فهى سحابة الامل التى يرجوها الشاعر أن تروى قفر
حياته . ومن هنا فهو يركز حديثه ونداءه لها ولكنها لا تطهره الا الكآبة
ولا تستجيب لبكائه واستعطافه وما من شاعر يحاول أن يرسم صورة
للخريف يمكن أن يكون أكثر توفيقاً من هذه البداية المعتمدة المجربة
التى لا يريد الغيث أن يمد لها يد العون . بعد هذه الصورة الرمزية التى
جسد فيها الشاعر أحزان نفسه وعدم استجابة الواقع بالامل . يفصح
الشاعر عن كوامن اللوعة فى نفسه . انه الهجر الذى ثقل على القلب
وقد اختار الشاعر لفظ « كثر » بدلا من « ثقل » للدلال على أن الهجر
ليس فقط هجر الحبيبة انها هو هجر كثير متعدد المصادر والدوافع .
ويبحث الشاعر عن سلوى تريح قلبه أو فراق يرضيه . ولكن سحر
جمال الحبوبة قد سد أمله جميع المنافذ فهو قد ملأ عليه شغاف
نفسه يحاصره حصارا محكما لا فكك منه وما أبلغ تعبيره عن
تمكن الحب من نفسه وامتلاء هذه النفس بمحبوبها حتى لتراه
فى كل مكان .

أيها الساكن عيني ودمي أين فى الدنيا مكان لست فيه

فالعين وسيلة الرؤية والدم طريق الاحساس فهو يراها فى كل
مكان ويحس بها أيضا . وهذا البيت لاستخدامه « العين والدم »
قد بلغ الذروة فى كمال المعنى الذى ورد فى الشطر الثانى من
البيت .

يحاول المؤلف أن يصور اغراء هذه الحبيبة وتفوقها فى المقطع
الثالث . أما المقطع الرابع فهو تعبير عن جمال الاحلام السريعة التى
يرى الشاعر أن سر جمالها فى سرعتها وهو يتصدى بدموعه
للوفاة بدين الهوى الثقيل ولا يتردد الشاعر فى تمسكه بحبه معرضا
عن التفريط والبيع .

قد شربناه عزيزا غاليا ان تكن بعت فانى لن أبيع

في المقطع الخامس يتوجه الشاعر الى رفاته لعل لديهم السلوى ولكننا نلاحظ المزج في هذا المقطع بين المناقضات . فما هو السهد قد سكب في الشراب وما هي أيام الشباب تنجلي عن الوهم ويمتزج العرس الضاحك بأحزان الضباب أن الشاعر يعلن عجزه وفشله وعدم قدرته على الفكك من أسر الذي سقط فيه . ثم يرجع الى المحبوب مرة أخرى متوسلا راجيا باسطا يد العذر والاعتذار فهو في الواقع لم يقيد هذا المحبوب بثيد يثقل عليه بل لقد ترك له الحرية المطلقة فالحب قيد خفى وهو لا يريد له مزيدا من الاغلال فالحب بأشواكه قد مزق كفى المحبوب بين صعاب الطريق تلك التي رمز اليها بالاحجار هي الاحجار قد أدته ودفعت نفسه الى الضيق . وما هما مرتبطان بقدر واحد وكأنهما غريقتان يمسك كل منهما بتلابيب الآخر . وينتقل الشاعر بعد ذلك الى التأمل . أن الهجر قد أورثه الاحساس ببطء الزمن . زمنه الداخلي الخاص ولكنه في نفس الوقت يعي أن الزمن الخارجي الذي ينهي الاعمار يبلى والارواح ليس بطيئا ولا متمهلا . وهذه المعاني العميقة والمقطع الرائع الذي يصور فيه الحياة ملة بطيئة مجسدا لليالي كأنها من أروع ما ترضه هذه القصيدة من اشراقات صافية تغمر النفس بالحيثية . أجساد تتحرك على مهاد الزمن هذا المقطع يفلح في اعطاء المعنى العميق لصورة الهجر دون أن يتحدث عنه . ولا يستسلم الشاعر لبطء الليالي فيرفع الرأس مخاطبا القماري كما كان أبو فراس الحمداني يخاطب الحائم لعلها تعزيه في محنته . انه يشكو وطأة الخريف ووجهه الممل وظلاله القائمة وغيومه العقيم فما هو يعلن موت هذه الروضة بعد رحيل النديم . والروضة هنا هي روضة الحب اما الخريف فهو الهجر المؤلم الذي قتلها بملاله وظلاله السوداء وما الذي يتبقى للانسان بعد أن تذبل روضته وتغيم السماء فوقه . فهل الدنيا الا هذا الطقس الداخلي الذي يجذب ويثر بغياب الحب وحضوره وليس عجيبا إذن أن يعلن الشاعر أن الدنيا كلها قد شامت وتولاها الوجوم والفقر وعدم الرغبة في شيء . وقد يحاول الشاعر أن يلبس تناعا زائفا للسعادة وذلك بافتعال الضحك ولكن محبوبته وحدها تدرك السر الذي يقيم في نفسه وما هو يجسد هذا السر في هذا البيت الجميل الذي يقول .

وترى في عمق روحى زهرة
تدسها الحزن دمعاً أبدياً
فهذه الزهرة تحمل من الدلالات معاني كثيرة هل هي زهرة النفس وحقيقتها أم هي زهرة الحب أم زهرة السعادة الضائعة كل هذه معاني محتملة لا يكشف عنه الشاعر . وإذا كان الخريف انما هو تجسيد لذبول العاطفة وخمود الحب وتحكم الهجر فان الغروب هو الآخر يتأزر معه في رسم الصورة المكلمة لفاجعة الحب ومأساة الحياة . وهو يوجه خطابه هذه المرة الى مؤاده فقد خاطب الحبيبة مرة والندامى مرة وطيور السروض مرة وآب الى مؤاده يستغيثه ويسأله ان كانت الحبيبة قد جادت بلفتة للشط القريب وبعد أن يتوجع من اليأس ويصور فراغ أيامه من لقاءها

يتوقف بنا فجأة كأنه اكتشف جمالها وسرها وكأن هذه الصحوه المفاجئة انها هى محاولة لانقاذ نفسه من التردى فى الجنون انه يؤكد لنفسه ان سحرها لا يقاوم . ويوقف المقطع الذى يبدأ بقوله اى سرفيك فى قلب القصيده كوهضة اشراق . يكرس لها الشاعر كل قدراته الشعرية لوصف سجر وجمال الحبسوبة . هذا السحر الغامض الغريب الذى يعلن عن نفسه فى فتنة الجسد . ويحتشد هذا المقطع بضجة موسيقية كبيرة كأنه يحاول ان يقيم لها عرسا فى نفسه يشفى نفسه من الضجر والملل . ان هذه الموسيقى العالية المفاجئة تأتى كمحاولة لمقاومة الضجر والملل وبطء الليالى الطويلة لعلها تبث الحيوية فى أوصال الحياة من جديد ثم يعود بعد ذلك الى التذكر ولكن كل ذكرياته تقود الى مدينة الوهم والحسرة والتفجع على أيام الهناء العابرة ولكنه مستشبه بذكرياته عائد الى مغانيه القديمة .

ها أنا عدت الى حيث التقينا فى مكان رفرفت فيه السعادة وبسه قد رفرف الصمت علينا ان فى صمت المحبين عبادة

ان رفرفة الصمت تعطى للصمت معنى خاصا فهو يشبه الطائر السعيد ان الرفيف يوحى بالخفة والسعادة وقد ألح الشاعر على هذه الصورة كأنه وجد فيها انعكاسا حقيقيا للرضى نفسه وسعادتها . ثم عاد الشاعر يتوجع لمتسا جمالها يلوذ به من هجر الحياة وقد يميل الى تحميل الاتذار مسئولية الفراق .

انهما الدنيا عباب ضـمنـناوشـطوط من حظوظ فرقتنا

ونراه بعد ذلك يتجول بين اثار الحبيب الكرسي والمائدة وكأنه يعتقد الامل على الذكرى بدلا من الحقيقة الهاربة فى أن تمنحه السعادة ويختتم الشاعر قصيدته كما لو كان يرى مصرا بأكمله مؤمنا بنهاية كل شئ ناظر الى تجربته العاطفية كما لو كانت العمر نفسه فيها هو يخاطب فؤاده :

يا فؤادى العمر سفر وانطوى وتبقت صفحة قبل النوى
ما الذى يفريك بالدنيا سوى ذلك الوجه وذيك الهوى

هذه روح ابراهيم ناجى المضيئة لا ترى فى الحياة الا الحب ولا ترى فى الحب الا الالم . أما قصيدة الخريف فمرثية رائعة لتجربة خصبة عيقة ملأت حياة الشاعر بالتعاسة والفرح ولكنها انتهت كما ينتهى كل شئ . تنصح القصيدة فى كل أبساته عن المعانى الاساسية التى عاش لها ومات ابراهيم ناجى وهى ، الحب ، والحزن ، والجمال .

في الغربة

للشاعر محمود سامي البارودي

وما الطيف الا ما تربه الخواطر
 بأرواقه والنجم بالافق حائر
 محيط من البحر الجنوبي زاخر
 سوى نزوات الشوق حاد وزاخر
 اقام ولو طالت على الدياجر
 وعهدى بمن جادت به لا تخاطر
 ولم تنحسر عن صفحتها الستائر
 كما دار باليد النجوم الزواهر
 ولاهن بالخطب الملم شواعر
 رحيم وببت شديده العناصر
 كواكب في الافق فهي سواقر
 اليها على بعد من الارض ناظر
 اقيم فتغشى مقلتي السمائر
 ويا قرب ما التفت عليه الضائر
 لما طار لي فوق البسيطة طائر
 فكل امرئ يوما الى الله صائر
 لديها وما الأجسام الاعقائر
 فاحسانها سيف على الناس جائر
 دهره كما رب البهيمه جازر
 على طول ما تجنى على الخلق واطر
 بأن يتوقاها القرن المعاشر
 درى انها بين الأنام تقامر
 ومن لم يجد مندوحة فهو صابر
 بمستحسن كالحلم والمرء قنادر
 دواعي المنى فالصبر فيه المعاذر
 وصلت لما ارجوه مما أحصادر
 وتنهض بالمرء الجدود العواثر
 ويشرق وجه الظن والخطب كاشر
 مجاهدة الايام وهو مؤابر
 يحاذره من دهره فهو خاسر
 فليس له في معرض الحق ناصر
 فما هو الا طائش اللب ناسر
 جبان ولم يحو الفضيلة ناسر

ثأوب طيف من سميرة زائر
 طوى سدفة الظلماء والليل ضارب
 فيالك من طيف ألم ودونسه
 تخطى الى الارض وجدا وماله
 ألم ولم يلبث وسار وليته
 تحمل أهوال الظلام مخاطرا
 خماسية لم تدر ما الليل والسرى
 عقيلة اتراب توالين حولها
 غوافل لا يعرفن بؤس معيشة
 تعودن خفض العيش في ظل والد
 فهن كعنقود الثريا ، تألقت
 تمثلها الذكرى لعيني كأنني
 فطورا اخال الظن حقا وتارة
 فيا بعد ما بيني وبين أحبتي
 ولولا امانى النفس وهي حياتها
 فان تكن الايام فرقت بيننا
 هي الدار ما الانفاس الانهائب
 اذا احسنت يوما اساعت ضحي غد
 ترب الفتى حتى اذا تم امره
 لهائرة في كل حي وماله
 كثيرة الوان الوداد مليحة
 فمن نظر الدنيا بحكمة ناقص
 صبرت على كره لما قد أصابني
 وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز
 ولكن اذا قل النصير واعوزت
 فلا يشمت الاعداء بى فلربما
 فقد يستقيم الامر بعد اعوجاجه
 ولى أمل في الله تحيا به المنى
 وطيد يزل الكيد عنه وتنقضى
 اذا المرء لم يركن الى الله في الذي
 وان هو لم يصبر على ما أصابه
 ومن لم يذق حلو الزمان ومره
 ولولا تكاليف البيادة لم يخسب

وتقوى هموم القلب وهو مغامر
إذا لم تكن سوم الرجال المأثر
ولكن لأمر أوجبه المفاخر
فكل زهيد يمسك النفس صابر
ولا شهر السيف اليماني شاهر
ويقبل مكذوب المني وهو صاغر
فكل الذي في الكون للنفس ضائر
ومن أمنه ما فاجأته المخاطر
ولا ذنب لى أن عارضتنى المقادر
ولا كل محبوك التريكة ظافر
على وعرض ناصح الجيب وافر
إذا شأن حيا بالخيانة ذاكر
وغادرتها في وكرها وهى طائر
لصحنى بها والدهر فيه المعابر
تعاب بها والدهر فيه المعابر
إذا هو لم تحمد قراه العشائر
وقد لا يكون المال والمجد حاضر
لكاثر رب الفضل بالمال تاجر
فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسر
نعيم ولا تعدو عليه المفاخر
صئول وافواه المنيا فواغر
ولا انا ان اقصانى العدم باسر
ولا المال ان لم يشرف المرء سائر
فحليته وصم لدى الحرب ظاهر
تقاسمها فى الأهل باد وحاضر
وكم سيد دارت عليه الدوائر
واى جواد لم تخنه الحوافر
وتنزو بعوراء الحقود السرائر
غيابتها والله من شاء ناصر
ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر
الى غاية تنفت فيها المرائر
على فلكة الساقين فيها المآزر
ويسفل كعب الزور والزور عائر
فما أول الا ويتلوه آخر

تقل دواعى النفس وهى ضعيفة
وكيفيين الفضل والنقص فى الورى
وما حمل السيف الكمى لزيينة
إذا لم تكن الا المعيشة مطلب
فلولا العلا ما ارسل السهم نازع
من العار ان يرضى الدنيا ما جد
إذا كنت تخشى كل شئ من الردى
فمن صحة الانسان ما فيه سقمه
على طلاب العز من مستقره
فما كل محلول العريكة خائب
فماذا عسى الاعداء ان يتقولوا
فلى فى مراد الفضل خير مغبة
ملكيت عقاب الملك وهى كسيرة
ولو رمت ما رام امرؤ بخيانية
ولكن ابت نفسى الكريمة سواة
فلا تحسبن المال ينفع ربه
فقد يستجم المال والمجد غائب
ولو ان اسباب السيادة بالغنى
فلا غرو ان حزت المكارم عاريا
انا المرء لا يثنيه عن درك العلا
قئول واحلام الرجال عواذب
فلا انا ان أدنانى الوجد باسم
فما الفقر ان لم يدنس العرض فاضح
إذا ما ذباب السيف لم يك ماضيا
فان كنت قد اصبحت فل رزية
فكم بطل فل الزمان شيباته
واى حسام لم تصبه كلاله
فسوف يبين الحق يوما لناظر
وما هى الا غمرة ثم تنجلي
فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعدما
فمهلا بنى الدنيا علينا فاننا
تطول بها الانفاس بهرا وتلتوى
هنالك يعلو الحق والحق واضح
وعما قليل ينتهى الامر كله



شاعر هذه العصماء هو رائد النهضة الشعرية العربية المعاصرة
والذى عرفناه بلقب رب السيف والقلم محمود سامى البارودى . وإذا
كان لنا ان نقدم وصفا تاريخيا لحياته تحدده الارقام والسنوات والأيام
فان حياته وشعره يظللان عصيان على هذا الوصف التاريخى لانهما

يتجاوزان حدود المصطلح الى مدار بعيد وعميق من العبقريّة والثورة
والإلهام والبعث .

ولد محمود سامي البارودي في السادس من أكتوبر عام ١٨٣٩ في بيت أسرة البارودي بباب الخلق بالقاهرة ابناً لأسرة جركسية . كان والده أحد أمراء المدفعية وجاء لقبه البارودي نسبة الى أيتاي البارود حيث كان أحد أجداده ملتزماً لها . ولقد أعطت الدنيا والموهبة للبارودي كل أسباب النعمة والبلاء أعطته . حظاً عظيماً من المجد وحظاً كبيراً من التعاسة الشخصية . فهي حياة غنية بكل المعايير الانسانية والفنية والاجتماعية والسياسية .

نشأ البارودي يتيمًا فقد مات والده وهو في السابعة من عمره وبعد ان تلقى تعليمه الأول في بيته شأن أبناء الطبقة الاروستقراطية وطبقة المماليك والترك في ذلك العصر توجه الى المدرسة الحربية التي تخرج منها في عام ١٨٥٤ . وما ان أكمل الشاعر الفارس تعليمه العسكري حتى أظّل عهد الخديو سعيد حيث انتكست النهضة التي بدأها محمد علي وواجه البارودي فراغاً لم يكن قد تهيأ له وهو في فورة شبابيه بل لقد أعد نفسه للمغامرة وخوض المعارك . والهمته النار المقدسة التي خلقها الله بداخله أن يتجه الى تراث الشعر العربي بعصوره الجاهلية والاسلامية والاموية والعباسية ينهل من منابعها . فلستوطن وجدانه هذا الشعر وفي عصوره الذهبية وما أن ذاق رحيقه حتى توهجت النار وفاضت موهبته شعراً غير مألوف في عصره . كان شعراء عصره هم عبد الله فكري ومحمود صفوت الساعاتي وعبد الله النديم وكان هؤلاء أفضل من الجيل الذي سبقهم والذي سقط شعراؤه في الزخارف اللفظية والعلل النحوية والاغراض الاجتماعية السقيمة فجاء البارودي بمزمار جديد على العصر ترن في انغامه كل عصور الشعر العربي الغابرة . في الوقت الذي كانت فيه لغة الحياة نفسها أبعد ما تكون عن الصحة اللغوية فضلاً عن الفصاحة العربية والبلاغة الادبية .

اتسعت ثقافة البارودي بسفره الى الاستانة موظفاً في وزارة الخارجية وتعلمه للفتن التركية والفارسية وعكوفه على درس آدابهما في الاصول اللغوية لهذين الادبيين غير أنه ظل وفياً شديد الوفاء للشعر العربي واستجابة لهذه الفطرة الادبية النادرة جلس على شاطئ البسفور يتغنّى بشعر الامويين والعباسيين الذي كان صده بالغ العمق في وجدانه المرهف .

وما أن عاد البارودي الى مصر حتى أظّل عهد جديد هو عهد الخديو اسماعيل الذي حاول النهوض من جديد . ورقي الشاعر الى

رتبة القلعة . وفي عام ١٨٦٥ أصبح قائد الفيالق الرابع من حرس الخديوى ثم جاءت حرب كريت وسافر البارودى على رأس حملة من الضباط والجنود المصريين لخماد ثورة جزيرة كريت التى كانت تابعة للدولة العثمانية وأبلى الشاعر بلاء عظيما انتهى بالنصر . وتشبهت له العقول والانتظار وحظى الشاعر الفارس بمكانة عالية فى وطنه واشترك مرة أخرى فى الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ وتجلت فيها شجاعته وكوفى برتبة أمير اللواء وكان الشعر يتأجج فى قصائد تصف هذه المعارك الحربية ببطنة بحنين جارف الى مصر ، وحين عاد الى مصر عين مديرا للشرقية ثم مديرا للاوقاف . وقد وضعت روحه الوطنية وشجاعته وشعره فى قلب الحركة الوطنية والقومية وتولى وزارة الحربية ونالت منه المؤامرات حتى أراد الاعتزال فى مزارعه ولكنه كان علما من أعلام الحركة الوطنية متعاطفا ولكن على درجة من الحذر مع الثورة العربية وما أن فشلت هذه الثورة التى قامت لتحقيق الكرامة الوطنية والاستقلال السياسى والتأومة النفوذ الاجنبى . ما أن فشلت هذه الثورة حتى أخذ البارودى مع قائدتها وعوقب معهم بالنفى الى جزيرة سيلان . وما كان للخونة وحلفاء الاستعمار أن يغفروا له بلاءه العظيم فى خدمة الحركة الوطنية وشعره الغيور على مصلحة الوطن وحب المصريين له وحماسه الدائم للإصلاح السياسى والاجتماعى . وقضى الشاعر سبعة عشر عاما فى المنفى كانت من أقسى الحن فى حياته ولكنها كانت فى نفس الوقت فرصة الشعر الذهبية لى يترعرع فى صومعة الالم والحنين الجارف . وظل الشاعر يعانى الغربة والوحشة وهو بعيد يرى أسرته الصغيرة يتخطفها الموت وأسرته الكبيرة يستبد بها الخونة والطغاة وحلفاء فرنسا وانجلترا فيلجأ الى الشعر الغذاء والدواء . ولكن الجسد لا يكاد يحتمل كل هذه المعاناة وهو يواجه الزمن بكل ثقله وجبروته فيضعف البدن ويذوى ويكاد البصر نفسه أن يرحل هو الآخر ويصدر أمر من الخديو عباس حلمى فى ١٧ مايو ١٩٠٠ بعودة المنفيين من أقطاب الثورة العربية وفى مقدمتهم الشاعر محمود سامى البارودى الذى يصل الى مصر ولكنه لا يلبث بها طويلا ففى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤ تصعد روحه الى بارئها بعد رحلة طويلة فى رحاب المجد والشعر والمحنة والعقوبة والوطنية يقول :
الدكتور محمد حسين هيك فى مقدمة ديوانه عن شعره .

« شعر البارودى حياته . فكل قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان فى مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه وللبيئة التى أحاطت به وللنهضة المتوثبة فى الحياة حوله وللثورة التى تمخضت عنها تلك النهضة وللنكسة التى أصابت النهضة والثورة كليهما والتى نقلت الشاعر من وطنه الى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام يستأثر الشعر بها جميعا وقد اختار البارودى فى أثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر فى العصر العباسى وقال أجود مما اختار . فبعث الشعر العربى خلقا جديدا وشعر المنفى

كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التي أراد لها القدر أن تكون نغماً من الانغام ، تسمو بها النشوة الى ذروة السرور والطرب حيناً ويدفعها الطموح الى مضطرب الثورة والمنل الاعلى حيناً آخر ثم تصبغها السنين ويصقلها النفي فاذا الحكمة والحنين والحب تبعث الى هذا النغم سكونية تسمو على المألوف من الحان الحياة لا يغير من ذلك ما يدفعه النفي الى نفس الشاعر من الم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من نزوات شبيبته وثورة كهولته .

تكشف هذه القصيدة بعد تأملها عن عالم البارودي بأبعاده الفنية والانسانية الواسعة . فهي تمثيل بالغ الحساسية والاصالة لنموذج القصيدة البارودية التي تنتمي الى شاعرها بقدر انتمائها الى عالم القصيدة العربية في أزهى عصورها قد تحس وأنت تطالعها أن أنفاس عمالقة الشعر العربي تتردد في أبياتها ومقاطعها وأن جرسها شائع في قصائد المتنبي والبحرثري وأبي العلاء وأن لغتها جزلة جزالة القصائد العباسية بل أن صورها الشعرية توشك أن تكون شائعة في الشعر العربي القديم ومن ذا الذي يمنع نفسه من تذكر امرئ القيس والناطقة الذبياني وهو يقرأ وصف البارودي لليل . ولكن هذه الالفة الشديدة في اللغة والموسيقى والصور الشعرية والبناء الفني الذي ينتقل من غرض شعري لآخر هذه الالفة لا تحملك على التكبر للشاعر وأصالته ولا تحملك على التماس جذور صورته في قصائد الآخرين حتى تسهو عن شاعرها الحقيقي بل أنك لتشعر بقوة احساسين متعارضين سرعان ما يصبحان احساساً واحداً . القصيدة تبسط عالم القصيدة القديمة أمام وجدانك فهي جياشة بالحس التاريخي العميق ولكنها تتفرد بصياغة أصيلة تحس عبقها ولا تدرك كنهها . وإذا كانت التجربة تصنع الشكل فإن تجربة البارودي المتميزة في الحياة تتبدى بالغة التميز في شكله أيضاً فهو حين يصف الليل لا يصفه شاكياً ولا باكياً ولا يلحقه الوهن بل هو جلد على حوادث الأيام صابر على بلائها وينعكس صبره وجلده في هذا التركيز والتماسك في بنية الجملة الشعرية . وكذلك تنعكس شخصيته وتجربته بقوة في اختيار بحر الطويل بامتداده وثقله واتساعه لأمواج النفس المتلذذة ولكنك لا تحس ضعفاً ولا رغبة في الانضاء بل هو يمسك بأطراف تجربته التي تتنوع بين تجسيد حلم الزيارة التي قامت بها سميرة وبين التجلد اعتماداً على أيمن بالله عميق وقد يجنح الى الفخر حيث يظل الشاعر متنبهاً الى جوانب العزة والقوة فيه ولكنه لا يفرط في ذلك ويكاد يصل الى أن مناط القوة والمجد إنما هو الحكمة والفضيلة وليس المال والنعيم والجاه الكاذب . هو شاعر يقرأ على قسَمات جراحه آيات من الحكمة والتواضع والتجرد من الأشياء التي يراها الان باطلة كل البطلان .

ان القصيدة تبدأ من الحلم العزيز الذي يرى فيه الشاعر خيال ابنته سميرة يزوره متخطياً الفياض والبحار والاماد البعيدة والليالى

الظلمة . ويبدو أن قوة الشوق الغالبة في ضميره قد جعلته يصرح من البداية أن هذا الخيال الذي جاءه ليلاً أنسباً هو تجسيد لقوة مخيلته التي تستحضر هذه الابنة على جناح الشوق . لكنه يصارحنا من البداية أنه يعانى من البعد عن أهله ولا وسيلة له إلا الخيال القوى . ويفسى الشاعر بعد وهلة عابرة أنه صارحنا فيتبادى فى وصف هذا الخيال وكأنه يتصور أننا مازلنا مقتنعين بأن الزيارة الحقيقية فى الواقع وينتقل من وصف الظلام الذى قطعه الخيال الى وصف الخيال وصاحبه بل وصاحباتها اللواتى تلهو معهن ثم يعود مرة أخرى بعد أن تناسى أنه قد صارحنا بحقيقة خياله ليؤكد أن الذكرى هى التى تجسد لعينيه هذه الابنة الصغيرة التى لا يزيد طولها عن خنثية أشجار فهمى طفلة تحتاج الى حنان الأب وعطفه . والشاعر يلجأ الى هذا المدخل الرقيق حتى يعطفنا بقوة على محنته دون أن يجد نفسه مضطراً الى التصريح عن مشاعره منضياً اليأس من البداية بوجعته . أن كبرياء الشاعر الفارس تظل عصية تغالب المكروه فى هذا المنفى البعيد فلا تنحنى ولا تضعف وحتى حين يفيض به الوجد فيصرح بعاطفته الابوية والانسانية لا تجذبنا من احترام هذه المشاعر القوية حين يقول :

فيا بعد ما بنى وبين أحيى ويا قرب ما التفت عليه الضمائر
ولولا أمانى النفس وهى حياتها لما طار لى فوق البسيطة طائر

وكان البيت الثانى انما هو اعتذار عما أفضى به الشاعر من تخيل أحبابه يزورونه فى المحنة أو هو يستحضرهم اليه وهنا تتجلى شخصية البارودى الشامخة التى يجعل تجربته مفارقة لتجارب الاقدمين من الشعراء ونجد تعبيره يختلف عن تعبيرهم أيضاً . فالشعراء الاقدمون لا يأبهون للتبذير والتفسير والاعتذار عما فى نفوسهم هم ماضون وحدهم فى ببداء يطوف بها الموت والغربة من كل جانب وليس لهم ذلك المجتمع الذى كان لدى البارودى ولا كان لديهم هذا الضمير الحديث الذى يكبل الفرد بأغلال التحضر ومراعاة الآخرين فى الامضاء واعلان هوى النفس . ولكن البارودى لا يرى أنه قد أتى شيئاً يلام عليه فينصرف حتى لا تستولى عليه العاطفة العميقة الى التأمل الفلسفى الذى يتوكل على ايمان عظيم بالله واستخفاف حقيقى بهذه الدنيا واعتقاد بأنها لا تحسن الا لتسوء ولا تزيد من ثيمة المرء الا لتقتص منه بل لتقتله كما يذبح الجزار بهيمته بل أنه يرى فيها صورة المقامر . هذه الصورة العصرية التى تنتمى الى عصرنا بمعانيه وقيمه . حتى وهو تتودد اليه وهى كثيرة التودد نراها جديرة بأن يتجنبها العاقل الرشيد .

كثيرة السوان الوداد مليحة بأن يتوقاها القرنين المعاصر

هى امرأة خائنة هذه الدنيا أدن وهو منها على حذر . ولكنه لا يلبث
ان يتذكر قدرة الله وأمله فيه هذا الأمل الذى تحيا به الأمانى وتضىء الظنون
به وسط المحن .

إذا المرء لم يركن الى الله فى الذى يحاذره من دهره فهو خاسر

ويبدو أن التماس الايمان انما هو حصنه الذى ينشده حتى لا يتداعى
قواه التى يرى أن اختبارها فى الملمات هو أمر طبيعى . فكل ما يكابده
البارودى انما هو تكاليف السيادة ومطلب من مطالب العلاء وداع من دواعى
النفس القوية ثم يجاهر بنفسه برفضه للدنية رفض الغاضب الذى لا يتبل
لنفسه الهوان وهو يبرهن على صحة دعواه برفع قيمة الشجاعة فى الحق
وعدم الخوف من الدنيا .

إذا كنت تخشى كل شيء من الردى فمن صحة الانسان ما فيه سقمه
فكل الذى فى الكون للنفس ضائر ومن أمنيته ما فجأته المخاطر

ويبدو أن هذا التمهيد كان مدخلا منطقيا للون من الفخر بالنفس ربما
كان غير متوافق مع هذه الحكمة التى تزدري الدنيا ولكنها أيضا فى موقف
الدفاع عن النفس . فلو أنه استسلم للزهد والحكمة التى تقول ببطلان
الحياة لخلت القصيدة من القيمة الايجابية التى تنفع الحياة نفسها ومن
هنا نرى أن هذه القصيدة لا تلتف على غرض شعري واحد تستنفده
وتفنيه وتغنى معه بل هى شجرة كثيرة أوراق الحزن . يعيده الاغصان
فى رؤية تهزها ريح المحنة ولكنها لا تنكسر أبدا فى يد هذه
الريح ورغم أن الشاعر يصف ظلمه المحنة التى تلم به فهو يرى ذلك
أمرا عارضا .

وأى حسام لم تصبه كلاله ؟ وأى جواد لم تخننه الحوافر
ويعلم عن ايمان بالحق ونكران للباطل :

وما هى الا غمرة ثم تنجلي غيبتها والله من شاء ناصر

والقصيدة التى تبدأ بالحلم وتعلو أمواجهها الى الفخر تنتهى بالتسليم
بعد أن يكون قد كشف بجلاء عن جوهر شخصيته وتجربته ومصره فى
لغة بليغة تريك لغة عصور بأكملها ولكنها تظل ملكا أصيلا لشاعرها الذى
أبدعها . ومن هنا لا نستطيع أن نقول أن القصيدة رغم جنوحها الى الحكمة
والفخر والحنين والايمان بالله والتسليم متعددة الأغراض بل قصيدة
واحدة الغرض باللغة الدالة من ناحية الشكل الفنى ومن ناحية التجربة
على شخصية الشاعر محمود سامى البارودى وهكذا تلتقى القصيدة مع
القصائد القديمة وتفترق عنها كما يقترب الابن من الاب ويبتعد عنه لكون
له قسماته وأقدار حياته .

محمد إبراهيم أبو سنه

فهرس

- (أ) مدخل ١
- ٣ — « واحر قلباه » لأبى الطيب المتنبي
- ١١ — « رثاء الجدة » لأبى الطيب المتنبي
- ١٨ — « مرثية » لأبى العلاء المعرى
- ٢٥ — « لقد انصبتنى أم قيس » لكعب بن سعد الغنوى
- ٣٢ — « شاعر يرثى نفسه » لمالك بن الريب
- ٣٩ — « المؤنسة » لقيس بن الملو
- ٤٥ — « غزليات الأحوص » للأحوص الانصارى
- ٥٣ — « غزليات » لعمر بن أبى ربيعة
- ٦١ — « فى الحب » للعباس بن الأحنف
- ٦٧ — « ته دلالات فانت أهل لذاكا » عمر بن الفارض
- ٧٤ — « غزليات » لأبى تمام حبيب بن اوس الطائى
- ٨١ — « لامية العجم » للطغرائى
- ٨٩ — « أبو الهول » لأحمد شوقى
- ٩٧ — « الخريف » لأبراهيم ناجى
- ١٠٧ — « فى الغربية » محمود سامى البارودى

رقم الايداع ٨١/٢٨٨٦

الترقيم الدولى ٧ - ٢٨ - ٧٣١٥ - ١٧٧

مطبعة

مؤسسة يوم المستشفيات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العيني - القاهرة

تصميم الطائر السحابي
بالتوازي العشري المثلثي

03:11:03
الوقت